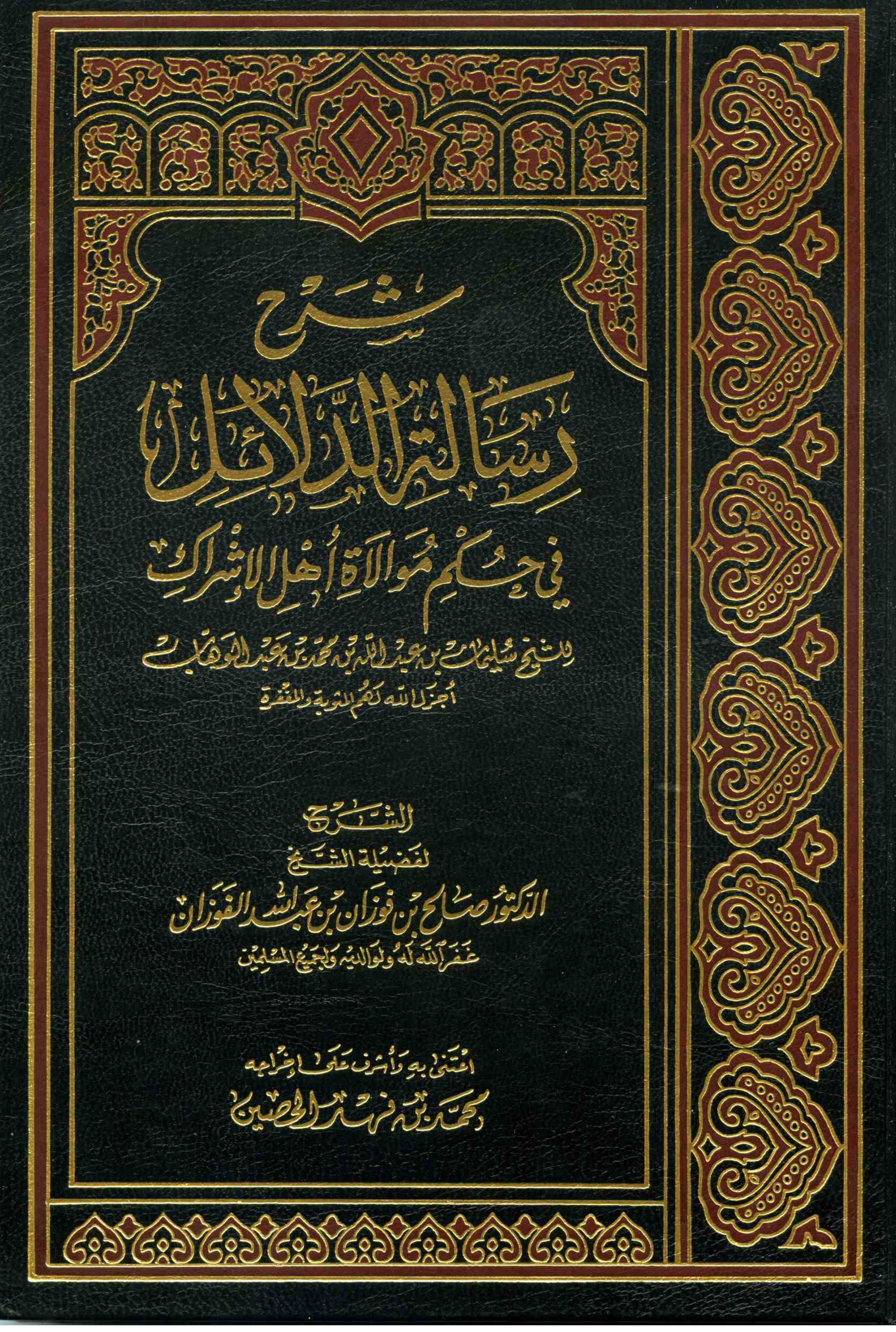
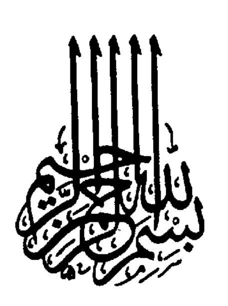

شرح
رسالة الدلائل
في حكم موالاة أهل الإشراك
للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب
أجزل الله لهم المثوبة والمغفرة
الشرح
لفضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
اعتنى به وأشرف على إخراجه
محمد بن فهد الحصين

شرح
رسالة الدلائل
في حكم موالاة أهل الإشراك



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

شرح
رسالة الدلائل
في حكم موالاة أهل الإشراك

للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب
أجزل الله لهم المثوبة والمغفرة

الشرح
لفضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على إخراجه
محمد بن فهد الحصين



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا شرح:

رسالة الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك

للشيخ/ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب

أجزل الله لهم المثوبة والمغفرة

وكان هذا الشرح في دروس ألقاها فضيلة الشيخ:

الدكتور/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز بالرياض، ابتداءً من يوم الأحد الموافق للخامس عشر من شهر ربيع الأول عام ستة وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة.

نسأل الله ـ جل وعلا ـ أن ينفع بذلك، وأن يجزي صاحب المتن خير الجزاء، إنه سميع مجيب.

إذن الشيخ صالح بن فوزان الفوزان الخطي

بطباعة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وبعد: فقد أذنت للشيخ محمد بن فهد الحصين بطباعة كتابي: شرح رسالة الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك للشيخ الإمام: سليمان بن عبد الله بن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحم الله الجميع. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

كتبه مؤلف الشرح

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

في ٢١/١١/١٤٢٦هـ

د. صالح بن فوزان العبد الله الفوزان

مقدمة معد شرح الرسالة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا شرحٌ قيّمٌ على رسالة الإمام سليمان بن محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ المسماة **(الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك)**، قام بتأليف هذه الرسالة يوم أن هاجم إبراهيم باشا الدرعية، واستولى عليها بالخديعة والمكر[1]، ثم قتل ودمر وخان العهد الذي كان بينه وبين الإمام محمد بن سعود رحمه الله، وحصل بذلك فسادٌ عظيم لا يعلمه إلا الله جل وعلا.

ومؤلف الرسالة قُتل غدراً، وقد كتب هذه الرسالة أثناء قدوم عساكر إبراهيم باشا بعد أن رأى بعض البوادي في ذلك الوقت ساعدتهم في ذلك الغزو، فكتب هذه النصيحة منه للمسلمين رحمه الله.

ولما كانت هذه الرسالة من الرسائل العظيمة؛ نظراً لما تحتويه من أصول عقدية مهمة جداً؛ كقضية التكفير والموالاة والمظاهرة والمناصرة، وقد حصل أن بعض ممن قل علمهم وكثر جهلهم استدل بمجمل هذه الرسالة في مواضع لايصلح الاستشهاد بها ولا ينطبق، مما نتج عن ذلك التكفير بمطلق الموالاة والمظاهرة بدون ضوابط شرعية فحصل بذلك فسادٌ عظيم، فحرص شيخنا العلامة صالح بن فوزان الفوزان لشرح هذه الرسالة شرحاً كافياً ووافياً، وذلك بتحرير ألفاظها وبيِّن معانيها؛ لأن هناك من الأدلة المجملة ما

---

(١) ذكر شيخنا ـ حفظه الله ـ كلاماً حول هذا في مقدمة الشرح مما يغني ذكره هنا.

يحتاج إلى بيان وإيضاح ؛ لتعم بذلك الفائدة التي شُرحت من أجلها هذه الرسالة ؛ ولهذا من المهم جداً بيان بعض القضايا في هذه الرسالة :

الأمر الأول: أن لهذه الرسالة سببٌ ووقت كتبت فيه هذه الرسالة ، فالواجب بيان ذلك عند الاستدلال بهذه الرسالة ؛ لأجل ذلك بيَّن الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العنقري هذا الأمر في رسالة ، فقال: «وقد بلغنا أن الذي أشكل عليكم أن مجرد مخالطة الكفار ومعاملتهم بمصالحة ونحوها وقدومهم على ولي الأمر لأجل ذلك أنها هي موالاة المشركين المنهي عنها في الآيات والأحاديث ، وربما فهمتم ذلك من الدلائل التي صنف الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ ، ومن **(سبيل النجاة)** للشيخ حمد بن عتيق.

أولاً : نبين لكم سبب تصنيف الدلائل ، فإن الشيخ سليمان صنفها لما هجمت العساكر التركية على نجد في وقته ، وأرادوا اجتثاث الدين من أصله ، وساعدهم جماعة من أهل نجد من البادية والحاضرة وأحبوا ظهورهم ؛ وكذلك سبب تصنيف الشيخ حمد بن عتيق **(سبيل النجاة)** هو لما هجمت العساكر التركية على بلاد المسلمين وساعدهم من ساعدهم حتى استولوا على كثير من بلاد نجد ، فمعرفة سبب التصنيف مما يعين على فهم كلام العلماء ، فإنه بحمد الله ظاهر المعنى ، **فإن المراد به موافقة الكفار على كفرهم ، وإظهار مودتهم ومعاونتهم على المسلمين ، وتحسين أفعالهم ، وإظهار الطاعة والانقياد لهم على كفرهم** ، والإمام وفقه الله لم يقع في شيء مما ذكر ؛ فإنه إمام المسلمين ، والناظر في مصالحهم ، ولابد من التحفظ على رعاياه وولايته من الدول الأجانب ، والمشائخ - رحمهم الله - كالشيخ سليمان بن عبدالله ، والشيخ عبداللطيف ، والشيخ

حمد بن عتيق، إذا ذكروا موالاة المشركين فسروها **بالموافقة والنصرة والمعونة والرضى بأفعالهم**، فأنتم وفقكم الله راجعوا كلامهم تجدوا ذلك كما ذكرنا[١].

الأمر الثاني: أن شيخنا أوضح في شرحه لهذه الرسالة مقام الولاء والبراء بالمفهوم الشرعي وبوسطية أهل السنة والجماعة بين الذين يريدون إلغاء وإسقاط مفهوم عقيدة الولاء والبراء وبين الغلاة الذين يرون أن أي إتصال وتعامل مع الكفار هو من المولاة لهم.

الأمر الثالث: أن الكلام في مسألة الموالاة ومظاهرة الكفار والتكفير وغير ذلك لابد من الرجوع فيها إلى أهل العلم؛ لأنهم هم المرجع في مثل هذه القضايا.

يقول الشيخ عمر بن سليم في رسالة كتبها: **وأما من رغب عن سؤال العلماء، أو قال: حجتنا الكتاب الفلاني، أو مجموعة التوحيد، أو كلام العالم الفلاني، وهو لا يعرف مقصوده بذلك، فإن هذا جهل وضلال**، فإن أعظم الكلام كتاب الله، فلو قال إنسان ما نقبل إلا القرآن وتعلق بظاهر لفظ لم يفهم معناه، وأوله على غير تأويله، فقد ضاهى أهل البدع المخالفين للسنة، فإن كان هذا حال من اكتفى بظاهر القرآن عما بيّنته السنة فكيف بمن تعلق بألفاظ الكتب وهو لا يعرف معناها - ثم قال - إذا عرف هذا تبين أن الذي يستغني بمجموعة التوحيد، أو يُقلد من يقرأها عليه، وهو لا يعرف معناها، قد وقع في جهل وضلال، بل يجب عليه الأخذ من علماء المسلمين[٢].

الأمر الرابع: على طالب العلم حينما يُشكل عليه أمر من هذه الأمور أن يسأل أهل العلم، يقول - جل وعلا -: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ

---

(١) الدرر السنية ط٢ (٣٠٩/٧)، وط٥ (١٥٧/٩).

(٢) المرجع السابق ط٢(٣١٣/٧)، ط٥ (١٦٦/٩).

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ختاماً: أسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يعصمنا من الزلل، وأن يوفقنا للاعتصام بحبله المتين، وأن يوفق شيخنا لما يحب ويرضى، وأن يسدد قوله وعمله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه معد شرح هذه الرسالة
محمد بن فهد الحصين
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
الرياض
ص ب:٢٤٠٨٥٣
رمـــز:١١٣٢٢

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فإن مؤلف هذه الرسالة هو الإمام الشيخ **سليمان بن الشيخ الإمام عبد الله بن الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله**، فهو من سلالة علم وتحقيق وتوحيد، وهو حفيد الإمام المجدد وابن الشيخ عبد الله بن محمد الذي خلف والده الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] في الإمامة بعد موته، ولد سنة ألف ومائتين من الهجرة، يعني: قبل وفاة جده بست سنين، وحفظ القرآن، واشتغل بطلب العلم على علماء

---

(١) هو الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد بن راشد، من بني تميم، ولد سنة خمس عشرة ومائة وألف بالعيينة، نشأ على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكتب السلف عامة، وارتحل في طلب العلم، فأخذ عن علماء مكة والمدينة والأحساء والبصرة، وبدأ دعوته من حريملاء، ثم انتقل إلى العيينة، ثم إلى الدرعية، فشرح الله صدر أمير الدرعية محمد بن سعود لنصرة الدعوة، وجلس الإمام المجدد للتدريس، وتوافد عليه الطلاب، وكتب الله له القبول في الأرض، وانتشرت دعوته لتشمل نجد وغيرها، له مؤلفات ورسائل عديدة في العقيدة وغيرها، منها: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، ومسائل الجاهلية، وأصول الإيمان، وثلاثة الأصول، وفضل الإسلام، وفضائل القرآن، ومختصر زاد المعاد، وغيرها كثير، توفي سنة تسع ومائتين وألف.
انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٣١وما بعدها)، ومن أعلام المجددين للشارح وفقه الله (ص٨٣ ـ ١٢٧)، وحياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته للدكتور سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، والشيخ محمد بن عبد الوهاب لأحمد بن حجر آل بو طامي، والإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون للشيخ عبد الله البسام.

الدرعية[١] في مختلف الفنون، فبرز في التوحيد والفقه والتفسير وعلم الحديث، فكان يُعد من المحدثين، يشهد لذلك كتابه **«تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد»**[٢] الذي حفل بعلم الأثر، وعلم التوحيد، وعلم التفسير فأودع فيه من كنوز العلم مما تلقاه عن مشايخه، ومما اطلع عليه من كلام أهل العلم.

ذلك لأن الدرعية كان فيها مكتبة زاخرة بالكتب التي جلبها جده الإمام المجدد من مختلف الأقاليم في رحلاته، ومما توفر في هذه المكتبة من الكتب المستنسخة، فكان عاكفاً على طلب العلم تلقياً وقراءة وتدريساً، حتى إنه جلس للتدريس وهو صغير السن، وتولى القضاء والدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ والحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان غالب وقته في الاشتغال بالعلم، فكان لا يخرج إلى الأسواق ولا إلى المتنزهات،

---

(١) من أشهر مشايخه: والده الشيخ عبد الله، وعمه الشيخ حسين ابن الشيخ محمد، والشيخ الفقيه حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر، والشيخ عبد الله بن فاضل، والشيخ محمد بن علي بن غريب، والشيخ حسين بن غنام، وأخذ علم الفرائض عن الشيخ عبد الرحمن بن خميس. انظر: مشاهير علماء نجد (ص٤٤)، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون (٢/ ٣٤٢).

(٢) طُبع عام ١٣٨٢ هـ في دمشق الشام، ط. منشورات المكتب الإسلامي لزهير شاويش، واشترى الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم بن ثاني جميع النسخ الخاصة بالمكتب وجعلها وقفاً لله ـ جزاه الله خيراً ـ وقد بلغ الشيخ سليمان في شرحه إلى نهاية باب ما جاء في منكري القدر، ووقف على باب ما جاء في المصورين، فأكمله الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف من كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله، وقد بلغ الشرح بدون التتمة ٦١٨ صفحة، وبالتتمة ٦٧٨ صفحة. انظر: مشاهير علماء نجد (ص٤٥).

وإنما كان غالب وقته في طلب العلم والتحصيل، وكان ذا غيرة قوية على دين الله عز وجل، والتقى بالإمام الشوكاني(١) وأخذ منه إجازة في علم الحديث(٢).

ولما استولت الدولة السعودية في عهده على الحرمين الشريفين، وقامت بتطهيرهما من مظاهر الشرك بهدم القباب التي على القبور، غار القبوريون وألبوا الدولة التركية على السعوديين ـ دولة التوحيد ـ لإعادة تلك المظاهر الوثنية، لا لأن السعوديين خرجوا عن طاعتهم ـ كما يُشاع من قِبل المغرضين وأصحاب الأهواء ـ فإن الدولة السعودية دولة مستقلة ليس للترك عليهم سلطان من قبل كسائر بلاد نجد، وإنما غزا الترك بلاد نجد لإزالة التوحيد وإعادة القبورية؛ فكان غزوهم اعتداء على دولة مستقلة ذات سيادة مخالفاً للشرع وللنظم الدولية، أضف إلى ذلك أن هذا الغزو الآثم يُراد به اجتثاث عقيدة التوحيد ومناصرة القبورية، ولكن ـ والحمد لله ـ لم يفلحوا، وبقيت عقيدة التوحيد، واندحرت القبورية إلى غير رجعة ـ إن شاء الله ـ في بلاد الحرمين.
ولما غزت الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا عن أمر الأتراك، وغشم إبراهيم باشا على الدرعية واستولى عليها، لم يستولِ عليها بالقوة ولكن بالخديعة، فإنه لما طال الحصار بينه وبين أهل الدرعية ـ وهم صامدون ـ رأى الإمام عبد الله بن سعود مصالحته

---

(١) هو الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني أحد الأعلام، كان مولده سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، أحرز الكثير من المعارف، واتفق على تحقيقه المخالف والموالف، يُشارُ إليه بالبنان في علوم الاجتهاد، له المؤلفات في أغلب العلوم منها: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، و«فتح القدير»، و«الدرر البهية»، و«إرشاد الفحول»، و«السيل الجرار»، وغير ذلك كثير. انظر: أبجد العلوم (٣/٢٠٢)، والحطة في ذكر الصحاح الستة (ص٢٦٨).

(٢) وكذا أجازه الشيخ الإمام الشريف حسن بن خالد الحني العريشي أحد قضاة الإمام سعود على اليمن، أجازه وأثنى عليه، انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون (٢/٣٤٢، ٣٤٣).

من أجل حقن دماء المسلمين على أن يسلم نفسه لإبراهيم باشا ليرسله إلى الترك، ففدى بنفسه ـ رحمه الله ـ حرمات المسلمين، وعاهده الخبيث على أن يكف القتال عن أهل الدرعية، وسلم الإمام نفسه بناءً على العهد، فلما أسروه ورحلوه خان العهد وانقض على أهل الدرعية بالقتل والتدمير، فخان العهد الذي بينه وبين الإمام عبدالله بن سعود، فقتل الذراري، وسفك الدماء، وهدم البيوت على أهلها[1]، وخرب الدرعية.

وهو بهذا يظن أنه سيقضي على هذه الدعوة بجهله، والدعوة لا أحد يقضي عليها؛ لأنها مبنية على الكتاب والسنة، فهي دعوة الرسول ﷺ، فلا يمكن القضاء عليها أبداً؛ لأن الله سبحانه يحميها، وإن أصاب أهلها شيء من القتل، أو الاستيلاء من قبل عدوهم، فإن الدعوة لن تتضرر أبداً، بل هذا يزيدها قوة وصلابة؛ لأنها دعوة الرسول ﷺ، والله تكفل بنصرتها وأنها ستبقى، فلم يستطع القضاء على الدعوة، بل زادها ذلك قوة وصلابة واستمرت الدعوة، ونرجوا أن الله كتب الشهادة لمن قُتل من المسلمين.

وكان من جملة من قُتل وغُدر به هذا الإمام الشاب الشيخ سليمان بن عبدالله، أخرجه الخبيث من الدرعية وأرسله مع الجنود وقتلوه في المقبرة ـ رحمه الله ـ وعمره لا يتجاوز الثانية والثلاثين سنة.

هذا هو المؤلف ـ رحمه الله ـ ظن الخبيث أنه قضى عليه، وفي الحقيقة أن علمه ودعوته ونفعه استمر له إلى يوم القيامة إن شاء الله، فإنه وَرَّث علماً غزيراً، وقد قال ﷺ: **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقه جاريه، أو علم يُنتفع**

---

(١) قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: فنزل الدرعية (يعني إبراهيم باشا)

به...»[١]، فهو ورث العلم النافع الذي يجري عليه أجره إلى يوم القيامة ـ إن شاء الله ـ وزيادة على ذلك أنه قُتل شهيداً ـ إن شاء الله ـ في سبيل الله، رحمه الله وأجزل له المثوبة.

وهذه الرسالة التي بين أيدينا هي من العلم الذي ورّثه رحمه الله، ومدارها على بيان أصلين عظيمين من أصول الإسلام ألا وهما: الولاء والبراء.

فالولاء لغة[٢]: مأخوذ من ولي الشيء إذا قرب منه، فالولي هو القريب.

والبراء[٣]: مأخوذ من البرء وهو القطع والانفصال، فالبراء هو الانقطاع والانفصال عن الشيء؛ كما يُقال: برى القلم إذا قطعه.

وأما شرعاً:

فالولاء: هو محبة المؤمنين ومناصرتهم ومعاونتهم وتولي شؤونهم.

والبراء: هو البراءة من المشركين والكفار والبعد عنهم، وذلك ببغضهم وعداوتهم، والبراءة من دينهم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: ٥١]، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) النهاية في غريب الأثر (٥/٢٢٦)، ولسان العرب (١٥/٤١٥).

(٣) النهاية في غريب الأثر (١/١١٢)، ولسان العرب (١/٣٣).

ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ومن الولاء المناصرة والمظاهرة لهم، وهي مناصرة الكفار على المسلمين، فمن أحب الكفار وناصرهم على المسلمين فهو كافر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣].

فالولاء للكفار يكون بالمحبة لهم، والمناصرة لهم:

بالأقوال: مثل مدح الكفار والثناء عليهم.

والأفعال: مثل مناصرة الكفار، والتشبه بهم، إلى غير ذلك من أنواع موالاة الكفار.

والبراءة: أن تتبرأ من دين المشركين؛ كما قال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين معه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤] تبرؤوا منهم ومن دينهم، ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ

سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]، فتبرأ منهم ومن دينهم.

ومن البراءة أيضاً أنك لا تستغفر ولا تدعو للمشرك والكافر حياً أو ميتاً، فإن كان حياً فإنك تدعو له بالهداية، ولكن لا تدعو له بالمغفرة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فالبراءة تكون من المشركين، وتكون من دينهم أيضاً؛ كما في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

هذا معناه البراءة من دينهم، وليس كما يظن بعض الناس أن معناه الموافقة لهم على دينهم، وأن كلاً له دينه، وكلاً حر في عقيدته؛ كما يُدندنون الآن، فلو كان الإنسان حراً في عقيدته لما أرسل الله الرسل، ولا أنزل الكتب، ولا شرع الجهاد، فالعقيدة لابد أن تكون واحدة وهي: عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فمن كفر وأراد نشر الكفر والقضاء على الإسلام فإنه يُقاتل.

فهذا هو الولاء والبراء ـ البراء من المشركين والبراء من دينهم ـ وهذا يستدعي أن المسلم يبتعد عنهم، فلا يصادقهم، ولا يصاحبهم، ولا يؤاخيهم؛ فيبتعد عنهم غاية

البعد، ويحذر منهم أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥]، فلا يجوز التنازل عن شيء من ديننا لإرضائهم، بل نتمسك بديننا ولا نتنازل عن شيء منه لأجل إرضائهم، فهم لن يرضوا حتى ننسلخ من ديننا كلية ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، هذا الذي يريدون، يريدون أن نترك ديننا ونصير معهم، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

فهم لا يرضيهم التنازل عن شيء من ديننا، بل لابد أن نترك ديننا كله ونتبعهم، هذا الذي يريدون، ونحن لا نتنازل عن شيء من ديننا أبداً ؛ لأن التنازل عن شيء من الدين هو المداهنة المنهي عنها ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨، ٩]، وقال: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١]، أي: تتركون شيئاً منه إرضاءً للكفار، فلا يجوز التنازل عن شيء من القرآن أو من الدين لأجل إرضائهم، بل نتمسك بديننا وبقراءننا.

نعم لا مانع أن نتعامل معهم بالمعاملات الدنيوية، وتبادل المصالح بالبيع والشراء والتجارة، والتعاقد معهم على إقامة المصانع، والاستفادة من خبراتهم، واستئجارهم ليقوموا بأعمال نحتاج إليها وهم يتقنونها، هذا كله لا مانع منه، وليس هذا من الموالاة،

بل هذا لمصلحة المسلمين ومما يخدم ديننا، ولا مانع أن نتصالح معهم إذا اقتضى الأمر المصالحة على ترك القتال، وقد صالح النبي ﷺ اليهود[1]، وصالح المشركين في الحديبية[2]، فلا مانع من التصالح معهم إذا كان المسلمون بحاجة إلى الصلح، قال تعالى ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، فإذا كنا لسنا بحاجة فلا نتصالح معهم، أما إذا كنا بحاجة إلى هذا فنتصالح بقدر الحاجة، وليس هذا من موالاتهم بل هذا من أجل نفع المسلمين.

والناس في باب الولاء والبراء على أقسام:

القسم الأول: منهم من يرى أن الولاء والبراء معناه أننا نقاطع الكفار نهائياً، فلا نتعاهد معهم، ولا نتصالح معهم، ولا نقبل التفاوض معهم، ولا نقبل إتيان المندوبين والسفراء منهم للتفاهم معنا، لأن هذا عندهم الموالاة.

والحق: أن هذا ليس من الموالاة، لكن هؤلاء يجهلون هذه المسألة، وهذا غلو في الولاء والبراء، وهو خلاف ما دل عليه كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ تصالح مع المشركين، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يبيع ويشتري مع اليهود، وتوفي ﷺ

---

(١) كما ثبت بذلك الحديث الذي رواه البخاري (٢٢٨٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: **«أعطى رسول الله ﷺ خيبر اليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها».**

(٢) أخرج البخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية كتب علي بينهم كتاباً، فكتب محمد رسول الله ﷺ، فقال المشركون: لا تكتب محمد رسول الله، لو كنت رسولاً لم نقاتلك، فقال لعلي: امحه، فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وصالحهم على أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام، ولا يدخلوها إلا بجلبان السلاح».

ودرعه مرهونة عند يهودي بطعام اشتراه لأهله[١]، والنبي ﷺ عقد العهد معهم في المدينة وما قاتلهم حتى خانوا العهد[٢]، ولو وفوا بالعهد لوفى الرسول ﷺ لهم، وليس هذا من الموالاة، ولكن الذين عندهم غلو أو جهل يقولون: هذا من الموالاة. ومعنى قولهم هذا أننا لا نتعامل معهم بشيء أبداً ولا نتصالح معهم، وهذا ليس من الدين.

كذلك نُحسن إلى من أحسن إلينا من الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وهذا من باب المقابلة والمكافأة على الإحسان وليس من باب المحبة، ولا مانع أن يتألفهم ولي الأمر إذا خشي على المسلمين من شرهم، يتألفهم ويعطيهم شيئاً من المال لأجل دفع شرهم، حتى إن الكافر المؤلف يُعطى من الزكاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠]، ولكن هذا من صلاحيات ولي الأمر هو الذي يعطيهم، فيُعطى من يُرجى إسلامهم من الزكاة طمعاً في إسلامهم، لا مانع من ذلك، والنبي ﷺ أعطى صفوان بن أمية من المال من مغانم حنين أعطاه الشيء الكثير وهو كافر، حتى ألقى الله الإسلام في قلبه فأسلم، تألفه ﷺ حتى أسلم ويعطى

---

(١) أخرج البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير».

(٢) أخرج البخاري (٤٠٢٨)، ومسلم (١٧٦٦) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومن عليهم، حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فآمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة».

من يخاف شره منهم لكف شره عن المسلمين خصوصاً رؤساؤهم المسيطرون عليهم ، فهذه أمور ليست من الموالاة.

كذلك لا مانع أن نتزوج المحصنات من الكتابيات ، ولا مانع أننا نأكل من ذبائح أهل الكتاب ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

ويجب على الولد أن يحسن إلى والده الكافر ويبر به ، وإن كان كافراً ، هذا من حق الوالد على ولده ، وهذا من باب المكافأة أيضاً ، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٤ ، ١٥] صاحبهما في الدنيا معروفاً ، فأنت لا تطيعهما في الكفر لكن تبذل لهم النفع والإحسان والبر بهما ، فحق الوالد لا يسقط عن الولد ولو كان كافراً ، ولكن لا يحبه إذا كان كافراً ، بل يتمسك بدينه ولا يطيع والده بترك دينه.

ولما أسلم سعد بن عبادة ﷺ وكان باراً بوالدته ، وكانت كافرة في أول الأمر ، فقالت له: **«لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي ، فيقال: يا قاتل أمه»** ، فقال سعد: **«لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء»** ، فمكثت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب حتى اشتد جهدها ، فلما رأى سعد ذلك منها قال: **«يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن**

شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت وشربت»[1]، ثم مَنَّ الله عليها بالإسلام فأسلمت، ولما ماتت سأل سعد ﷺ

رسول الله ﷺ هل يتصدق عنها؟ قال: **«نعم تصدق عنها»**[2].

فهذه قواعد الإسلام، وهكذا ينبغي أن يُفهم الدين ولا يُؤخذ بالعاطفة أو الغيرة الشديدة أو الجهل، إنما يؤخذ بالعلم والمعرفة.

وكانت وفود الكفار تفد إلى النبي ﷺ في المدينة، حتى دخلوا عليه في المسجد وتفاوضوا معه، فما ردهم الرسول ﷺ، بل كان يتفاوض مع رسل الكفار[3].

فهذه أمور يجب على طلبة العلم أن يفهموها، ولا يأخذوا الولاء والبراء عن جهل، وهذا هو الطرف الأول؛ طرف الجهال المغالين في الولاء والبراء، حتى أدخلوا فيهما ما ليس منهما.

القسم الثاني: الذين لا يرون الولاء والبراء، ويرون الناس سواء، ويقولون: ما علينا من الدين، كلٌّ له دين، ونحن بنو الإنسان وبنو آدم كلنا سواء، ولا يجوز أن يكره أحد الآخر بسبب دينه. يسمون البراء كرهاً، ويقولون: كره الآخر ويعدونه من الإرهاب المحرم، ويقولون: لا تكره أحداً من بني البشر، وعليك بالإنسانية، وبنو آدم كلهم إخوان لا فرق بين كافر ومسلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٨٩)، وأحمد في المسند (١/١٨٥)، والطبري في تفسيره (٢١/٧٠)، وابن حبان (١٥/٤٥٣)، والبيهقي في الكبرى (٩/٢٦) من حديث سعد بن عبادة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٠)، ومسلم (١٠٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرج الإمام أحمد في المسند (٤/٢١٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/٢٨٥)، وابن الجارود في المنتقى (ص١٠١)، والبيهقي في الكبرى (٢/٤٤٤) عن عثمان بن أبي العاص ﷺ أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم المسجد حتى يكون أرق لقلوبهم.

هكذا ينادون الآن، ويطالبون بإسقاط الولاء والبراء من الإسلام، ولو تمكنوا لمسحوا الآيات التي في القرآن في موضوع الولاء والبراء؛ كما يحاولون ألا تُكتب في المناهج والمقررات الدراسية، ويقولون: لأن هذا يشوه المسلمين، ويشوه الإسلام.

فهم على طرف النقيض مع الغلاة، هؤلاء مُفَرِطون وأولئك مُفْرِطون.

القسم الثالث: أهل الوسطية والاعتدال الذين يرون وجوب الموالاة في الله، والمعاداة في الله، لكن ليس معنى ذلك أن نظلم الكفار، أو نقتل المعاهدين، بل نفي لهم بعدهم ما وفوا لنا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، أي: لا يجرمنكم بغضهم وعداوتهم على أن تظلموهم، بل العدل واجب مع المسلم ومع الكافر، فلا يجوز الظلم بحال من الأحوال، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

فهكذا يأمرنا ديننا، وهو دين الاعتدال، فنحن نبغض الكفار، ونبغض دينهم، ولكن لا نظلمهم، ولا نقتل المعاهدين منهم، قال ﷺ: **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»**[1]، انظر مع أن القاتل مسلم ومؤمن توعده الله بأنه لايجد رائحة الجنة مع أنه قتل كافراً، ولكن لما كان الكافر له عهد صار قتله غدراً في الإسلام وطعناً في الإسلام، فهو طعن في الإسلام من حيث لا يدري ويظن أنه ينصر الإسلام، يقول: أقتل الكافر نصرة للإسلام!! بل يقال له: أنت طعنت في الإسلام وخذلته؛ لأنك شوهت الإسلام حتى يظن الناس بأنه دين الغدر والخيانة.

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

حتى إن المُعَاهَد إذا قُتل خطأً ففيه الدية والكفارة مثل المسلم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التوبة: ٢٢]، فيجب في قتل الكافر المعاهد خطأً ما يجب في قتل المؤمن خطأً، الدية والكفارة: الدية لأهله على العاقلة، والكفارة على القاتل وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فإنه يصوم شهرين متتابعين، يصوم شهرين في قتل كافر، لماذا؟ لأنه مُعَاهَد، وهو أخطأ في حق الإسلام، وهذا ذنب يحتاج إلى كفارة، وأما إذا قتله عمداً فعليه الوعيد، **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»**.

فيجب أن نعرف هذه الأمور وهذه المبادئ في الولاء والبراء، فلا نكن مع المُفَرِّطين، ولا مع المُفْرِطين بل نكون على الوسط والاعتدال على ما تقتضيه النصوص الشرعية.

والولاء والبراء مقامهما عظيم في الإسلام، وهما من أصول الإسلام، قال ﷺ: **«أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»**[1]، والحب والبغض يجب أن يكونا في الله، وليس من أجل الدنيا، فلو أنه ما أعطاك شيئاً أو أخذ منك شيئاً هل تبغضه؟

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده (ص١٠١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨٠/٧)، وابن عبد البر في التمهيد (٤٣١/١٧) من حديث البراء بن عازب ﷺ، وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل (٣٤/٢)، والطبراني في الكبير (١٠٥٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨/٧) من حديث ابن مسعود ﷺ.

الجواب: لا، لكن تحبه في الله أو تبغضه في الله؛ وليس لأجل الدنيا، هذا أوثق عُرى الإيمان.

يقول عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: **«من أحب في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك»**، وقال في ختام كلامه: **«وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا فذلك لا يجدي على أهله شيئاً»**[1].

فهذا الباب باب عظيم، وهو أوثق عُرى الإيمان، والآيات في القرآن الكريم كثيرة في حب المؤمنين وبغض الكافرين، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين.

وهذا من حقوق كلمة التوحيد **(لا إله إلا الله)**، فكما أن **(لا إله إلا الله)** براءة من الشرك فهي أيضاً براءة من المشركين، وكما أنها محبة لله وعبادة لله فهي أيضاً محبة للمتقين والمؤمنين، فأنت تحب من يحبهم الله، وتعادى مَنْ عاداهم، والله تعالى قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، الله - عز وجل - لا يحب الكافرين لأنهم أعداؤه، فأنت لا تحبهم بل تحب من يحبه الله، وتبغض من يبغضه الله.

هذا هو المقياس في الحب والبغض والولاء والبراء، تابع لمحبة الله وبغض الله للأعمال وللأشخاص، فأنت لا تحب مِنْ الأشخاص إلا من يحبه الله، ولا تحب مِنْ الأعمال إلا ما يحبه الله، ولا تبغض مِنْ الأشخاص إلا من يبغضه الله، ولا تبغض من الأعمال إلا ما يبغضه الله عز وجل، فيكون حبك وبغضك تابعين لمحبة الله وبغضه سبحانه وتعالى، وهذا هو معنى العبادة، وهو معنى الولاء والبراء على حقيقته، فهذه

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/١٣٤)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/٤٠٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/٩٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/٧٠).

هي الضوابط في هذا الباب العظيم، الذي زلت فيه كثيرٌ من الأقدام، وضلت فيه كثير من الأفهام بسبب عدم الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وعدم الرجوع إلى أهل العلم الراسخين، فحصل ما حصل بسبب الإهمال والتفريط من الفريقين: فريق الغالين، وفريق المتساهلين.

وهذا أمر ينبغي أن نتفطن له غاية التفطن؛ لأن الحملة الآن شرسة ضد هذا الباب، يريدون أن يقتلعوا الولاء والبراء من الإسلام، وألا يكون بين الناس فرق أبداً، ويقولون: كلهم بنو آدم، وكلهم إخوان، وكلٌّ له دينه، ويقولون: اليهود يعبدون الله، والنصارى يعبدون الله، ونحن نعبد الله. وهذا معناه أن الأديان صارت سواء كلها عبادة لله.

ومثل هؤلاء نرد عليهم من وجوه:

الوجه الأول: أن اليهود لا يعبدون الله وحده ولا يؤمنون بجميع الرسل، فهم كفار مشركون، والنصارى كذلك يعبدون المسيح ويقولون: هو ثالث ثلاثة، أو ابن الله، أو هو الله. تعالى الله عما يقولون، فهم لا يعبدون الله، وليسوا على دين.

الوجه الثاني: أنه بعد مجيء الرسول ﷺ لم يبق دين إلا دينه، وجميع الأديان نُسخت وانتهت ببعثة الرسول ﷺ، فأوجب الله على جميع البشر أن يطيعوا هذا الرسول، فمَنْ لم يطعه فإنه كافر من أي نوع كان ومن أي ملة كان، وإن زعم أنه يعبد الله، أو زعم أنه تابع لموسى أو لعيسى، ومن زعم منهم أنه تابع لعيسى أو موسى فقد كذب؛ لأن موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ أخذ عليهما العهد أنه إذا بُعث محمد فإنه يجب عليهما اتباعه؛ كما أخبر الله ـ عز وجل ـ بذلك، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، فأخذ الله الميثاق على كل نبي أنه

لو بُعث محمد ﷺ وهو حي فإنه يتبعه، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، هذا الموجود في التوراة والإنجيل، فهم كذبوا في قولهم: إنهم يتبعون موسى، أو يتبعون عيسى.

وهناك من يقول: نرجع إلى دين إبراهيم عليه السلام، ما نريد يهودية ولا نصرانية ولا إسلاما، بل نرجع إلى دين إبراهيم.

فنقول له: هل دين إبراهيم غير دين محمد ﷺ؟

الجواب: أن محمداً ﷺ بُعث بدين إبراهيم عليه السلام، والرسل قبله بُعثوا بدين إبراهيم، فكل الرسل الذين جاءوا بعد إبراهيم كانوا على دين إبراهيم في التوحيد والعبادة.

فالحاصل: أن المسلمين الآن في مفترق طرق بين هذه الفئات من الكفار ومن المنافقين، ومن أهل الزيغ والضلال الذين يريدون أن يتلاعبوا بالدين، وأن يحولوا الناس إلى الكفر، وأن يزيلوا الفوارق بين المسلمين والكفار، ويسمون الولاء والبراء كراهية للآخر، ويصفون الولاء والبراء بالغلو والإرهاب والتطرف، وقد صرحوا بهذا في مقالاتهم، ولا يزال عفنهم يصدر الآن في الصحف والجرائد.

فيجب أن نتفطن لهذا الأمر، وأن يزيد حرصنا على الفهم، ولا يكون على مجرد الغيرة، بل على الفهم الصحيح لدين الله ـ عز وجل ـ لا إفراط ولا تفريط في هذا الباب وغيره، لكن في هذا الباب بالذات؛ لأنه الآن هو محل العراك بين المسلمين وبين المنافقين

وبين الكفار، فالمنافقون انضموا إلى الكفار الآن، فقد كانوا متربصين يتحينون الفرصة، فلما تنفس الكفار انحاز إليهم المنافقون من أبناء المسلمين، وصاروا ينادون بأفكار الكفار ويؤيدونها، فعلينا أن نتنبه لهذا الأمر، وألا ننخدع بهذه الدعايات المضللة.

قال الشيخ سليمان رحمه الله: بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله: أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم، خوفاً منهم، ومداراة لهم ومداهنة؛ لدفع شرهم، فإنه كافر مثلهم، وإن كان يكره دينهم ويبغضهم ويحب الإسلام والمسلمين، هذا إذا لم يقع منه إلا ذلك، فكيف إذا كان في دار منعة، واستدعى بهم، ودخل في طاعتهم، وأظهر الموافقة على دينهم الباطل؟

الشرح:

موضوع هذه الرسالة فيمن استولى الكفار على بلده، ماذا يصنع؟ هل ينجرف معهم ويوافقهم أو يثبت على دينه مهما كلفه الثمن؟ وفيها بيان حكم من يجر الكفار إلى بلاد المسلمين، ويمكنهم من الاستيلاء عليها، ويؤيدهم، وهاتان نقطتان عظيمتان في هذه الرسالة ينبغي الانتباه لهما:

النقطة الأولى:

في قوله: (أن الإنسان إذا أظهر للمشركين الموافقة على دينهم، خوفاً منهم، ومداراة لهم ومداهنة؛ لدفع شرهم) فإذا استولى الكفار على ديار المسلمين ماذا يجب على المسلم؟

الجواب: يجب عليه الثبات على دينه، وألا يتنازل عن شيء من دينه لأجل إرضاء الكفار المحتلين باختياره، ولا لأجل طمع الدنيا؛ كأن يطمع أن يتركوه يعيش ويزرع ويشتغل ولا يتعرضوا له، فيعطيهم دينه وهم يعطونه الدنيا. وهذه مداهنة والعياذ بالله، والشيخ ـ رحمه الله ـ سماها **(مداراة)**، ولكن هذه ليست مداراة بل هي مداهنة،

وفرق بين المداراة والمداهنة، وسيأتي في كلامه أن هذه مداهنة وليست مداراة، وسيأتي أيضاً الفرق بين المداراة وبين المداهنة.

قوله: (الموافقة على دينهم)، يعني: مكنهم من إقامة الكنائس في بلاد المسلمين، وأعطاهم الحرية وقال للمسلمين: لا تمنعوهم شيئاً، الذي يطلبونه منكم وافقوا عليه. فهذه مداهنة؛ لأن ديننا يمنع من هذا.

قوله: (ومداراة لهم ومداهنة)، يقصد بالمداراة المداهنة.

قوله: (فإنه كافر مثلهم)؛ لأنه مكن للكفار ورضي بدينهم، وتنازل عما أوجبه عليه من دين الإسلام ومن رفض دين الكفار والبراءة منه، فهذا لم يتبرأ منه بل أجازه وسوغه، وأعطاهم الحرية في بلاد المسلمين.

قوله: (وإن كان يكره دينهم ويبغضهم)، يعني إن كان يحب دينهم فهذا يكون كافراً مرتداً إذا مكنهم، و إذا مكنهم وهو يكره دينهم فبفعله هذا ارتد عن الإسلام لأنه ناصرهم على المسلمين.

النقطة الثانية:

في قوله: (فكيف إذا كان في دار منعة، واستدعى بهم) إذا كان في دار منعة ودار إسلام وجر الكفار على بلاد المسلمين، وأتى بجيوشهم لتغزو بلاد المسلمين، مثل ما حصل في آخر الخلافة العباسية لما جر الشيعي ابن العلقمي[1] وزير الخليفة، والخبيث

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، مؤيد الدين أبو طالب ابن العلقمي، كان في زمان المستنصر أستاذ دار الخلافة، ثم صار وزيراً للمستعصم؛ وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين، وكان رافضياً خبيثاً رديء الطوية على الإسلام وأهله، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة في أيام المستعصم ما لم يحصل لغيره من الوزراء، ثم مالأ على الإسلام وأهله الكافر هولاكوخان حتى فعل ما فعل بالإسلام وأهله مما لم يسجل التاريخ مثله، ثم

الشيعي الآخر نصير الدين الطوسي[1] جرا التتار على بلاد المسلمين، وهما يدعيان الإسلام، وخططا للكفار ومكناهم، وكذلك من فعل مثل فعلهم الآن، واستدعى الكفار وخطط لهم ومكنهم من الاستيلاء على بلاد المسلمين، فإنه يرتد وإن كان يكره دينهم.

قوله: (ودخل في طاعتهم، وأظهر الموافقة على دينهم الباطل) من أجل أن يتمكن في أمر الدنيا، ويحصل على رئاسة من الكفار، ومن أجل أنه يتشفى من أهل السنة على أيدي الكفار، وهذه ردة عن دين الإسلام.

ويلتحق بهذا من لم يجر الكفار بأنفسهم، لكن جر ثقافتهم ونظامهم، وحَكَّمَه في بلاد المسلمين، هذا كأنه أتى بالكفار، فإذا أتى بنظامهم وقوانينهم، وأزاح الشرع وجعل مكانه القانون، فهذا مثل من جر الجيوش على بلاد المسلمين.

حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالأهم، وزال عنه ستر الله، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، ثم انقطع في داره إلى أن مات كمداً وغبينة وضيقاً وقلة وذلة في مستهل جمادي الآخرة من سنة ست وخمسين وستمائة. انظر: الوافي بالوفيات (١/١٥١)، وسير الأعلام (٢٣/٣٦١)، والبداية والنهاية (١٣/٢١٢، ٢١٣).

(١) هو محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي، الفيلسوف صاحب علم الرياضي، صنف في علم الكلام وشرح الإشارات لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، ولد سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وتوفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة، قال ابن القيم: «ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف حتى شفا إخوانه من الملاحدة واشتفى هو، فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة» اهـ.

انظر: الوافي بالوفيات (١/١٤٧)، وإغاثة اللهفان (٢/٢٦٧)، والبداية والنهاية (١٣/٢٦٧)، وشذرات الذهب (٥/٣٣٩).

وأعانهم عليه بالنصرة والمال، ووالاهم وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين، وصار من جنود الشرك والقباب وأهلها، بعدما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله، فإن هذا لا يشك مسلم أنه كافر، من أشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يستثنى من ذلك إلا المكره: وهو الذي يستولي عليه المشركون، فيقولون له: اكفر، أو افعل كذا وإلا فعلنا بك وقتلناك. أو يأخذونه، فيعذبونه حتى يوافقهم. فيجوز له الموافقة باللسان، مع طمأنينة القلب بالإيمان.

وقد أجمع العلماء على أن من تكلم بالكفر هازلاً أنه يكفر فكيف بمن أظهر الكفر خوفاً وطمعاً في الدنيا؟!

الشرح

قوله: (وأعانهم عليه بالنصرة والمال، وقطع الموالاة بينه وبين المسلمين) أي: يكون مع جيش الكفار بالمال والنصرة ويُقاتل المسلمين معهم، وهو يدعي الإسلام، وقد يكون في الأول من جند التوحيد؛ كما في قوله: **(بعدما كان من جنود الإخلاص والتوحيد وأهله)**، ثم صار من جند الكفار وأصحاب القباب والأضرحة يساعدهم ويمولهم ويخطط لهم، ويعطيهم أسرار المسلمين، فهذا لا شك في كفره وردته.

وهذا زيغ ـ والعياذ بالله ـ وضلال، فالذي كان في الأول من جند التوحيد ومن أهل التوحيد، ثم جلب الكفار وساعدهم على المسلمين، أو لما جاءوا انضم إليهم ضد المسلمين ومكن لهم، فهذا زاغ وضل في عقيدته، فقد يكون فعل هذا لغرض دنيوي: يريد رياسة، أو يريد أن ينتقم من المسلمين، أو يتشفى ممن يبغضهم من أهل السنة، فهذه ردة عن دين الإسلام، فمن ساعد الكفار على المسلمين، وأتى بهم وخطط لهم،

فهذه مظاهرة للمشركين على المسلمين، وهي من نواقض الإسلام؛ لأن من ظاهر المشركين وأعانهم على قتال المسلمين فقد ارتد عن دين الإسلام.

قوله: (من أشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله ﷺ)؛ لأنه رضي بالكفر، وكذلك لو كان يبغض الكفر، ولكن حمله على هذا طمع دنيوي لرئاسة أو مال، مثل ما يحصل من الأعراب والمنافقين، يطمعون في الأموال ويساعدون الكفار ويتوظفون عندهم أو يصيرون في جندية الكفار الغازين لبلاد المسلمين، من أجل طمع الدنيا، أو من أجل التشفي من المسلمين، فهذا لا يشك مسلم في كفره، ولو كان هو يبغض دين الكفار؛ لأن هذه ردة بالفعل والقول.

وبفعله هذا يكون من أشد الناس عداوة لله تعالى؛ لأن من أيد أعداء الله ونصرهم فهو عدو لله؛ ولهذا يقول الإمام ابن القيم[1] ـ رحمه الله ـ:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي حباً له ما ذاك في إمكان

وكذا تعادي جاهداً أحبابه أين المحبة يا أخا الشيطان[2]

---

(١) هو الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، ثم الدمشقي، الفقيه الحنبلي، المفسر، النحوي، الأصولي، الشهير بابن قيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، وسمع الحديث، واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة، ولما عاد شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جماً، وكان جرئ الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف، وغلب عليه حب شيخه ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه. انظر: البداية والنهاية (١٤/٢٣٤)، والدرر الكامنة (٥/١٣٨)، والوافي بالوفيات (٢/١٩٥)، وشذرات الذهب (٦/١٦٨).

(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/٢٦٤).

يعني: تعادي أحباب الله - جل وعلا - وهم المؤمنون وتؤيد أعداء الله الكفار عليهم، وتدعي أنك تحب الله عز وجل.

قوله: (ولا يستثنى من ذلك إلا المكره) وهذا من الإنصاف والعدل، يعني: أن من فعل شيئاً من هذه الأمور باختياره فهو مرتد، أما من فعله مكرهاً مجبراً على ذلك فهذا معفو عنه؛ لقوله - جل وعلا -: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] بهذا الشرط: إذا وافقهم في الظاهر مع بغض ما هم عليه في الباطن، وفعل هذا لأجل دفع الإكراه فقط، ولا يستمر عليه، فإذا زال الإكراه تزول موافقته لهم فإن هذا العمل مباح له ولا يضره في دينه.

وسبب نزول هذه الآية أنها نزلت في عمار بن ياسر ﷺ لما أخذه الكفار وعذبوه ولم يطلقوه إلا لما سب الرسول ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فمن أجل دفع شرهم سب الرسول ﷺ، فأطلقوه، فندم على ما حصل منه، وخاف من الله جل وعلا، فلما أتى رسول الله ﷺ يسأله عن ذلك قال له: **«ما وراءك؟»** قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: **«كيف تجد قلبك؟»**، قال: أجده مطمئناً بالإيمان، قال: **«إن عادوا فعد»**[1].

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨] ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟﴾ أي وافقتوهم في الظاهر دفعاً لشرهم فلا حرج عليكم، أما من

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٦٠)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٤٩)، والطبري في تفسيره (١٤/ ١٨٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٠٨) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

وافقهم على الكفر لأجل طمع الدنيا، أو لأجل حصول رياسة، أو لأجل أن يحصل على غرض من أغراض الدنيا، فهذا مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه غير مكره، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ثم ذكر السبب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، يعني: ذلك بسبب أنهم استحبوا الطمع الدنيوي على الإيمان.

قوله: (وإلا فعلنا بك وقتلناك)، فهذا يعطيهم ما طلبوا منه لا عن اقتناع وموافقة، وإنما من باب التخلص منهم لدفع الإكراه فقط، هذه رخصة من الله ـ عز وجل ـ من عمل بها فلا حرج عليه، ومن صبر على دينه حتى يُقتل ولم يعمل بالرخصة فهذا أفضل.

قوله: (وقد أجمع العلماء على أن من تكلم بالكفر هازلاً أنه يكفر)، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فالذي يتكلم بكلام الكفر مازحاً أو هازلاً من غير إكراه فإنه يكفر، إنما يُستثنى المكره فقط.

قوله: (فإنه يكفر)؛ لأنه غير مكره، والدين ليس فيه مزح وليس فيه هزل.

قوله: (فكيف بمن أظهر الكفر خوفاً وطمعاً في الدنيا؟)؛ أي لاشك في كفره كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٦، ١٠٧].

فإذا كان الهازل الذي لا يقصد طمع الدنيا يكفر بنص القرآن، فكيف بمن يفعل هذا من أجل طمع الدنيا؟! هذا قد باع دنيه بدنياه.

تقدم لنا أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كتب هذه الرسالة في نقطتين:

الأولى: من تغلب الكفار على بلده وانقاد لهم ووافقهم على ما هم عليه من أجل أن يعيش أو ينال من وظائفهم ـ أي: من أجل طمع الدنيا ـ أن هذا ردة عن دين الإسلام.

الثانية: من جلب الكفار إلى بلاد المسلمين ليحتلوها، وأعانهم على ذلك بأن حملهم على دوابه، أو على سياراته، أو على معداته، وجلبهم إلى بلاد المسلمين، ودلهم على الطرق، وأعطاهم الأسرار، فهذه أشد كفراً.

وهاتان المسألتان حصلتا في وقت الشيخ المؤلف ـ رحمه الله ـ حين احتلال الدرعية، فإن من أهل الجزيرة من وافق المحتلين وأيدهم وأطاعهم ووافقهم على ما هم عليه[1]، ومنهم من فعل أشد من ذلك وهو: من جاء بهم وحملهم ونقلهم ودلهم على الطرق وأعطاهم أسرار المسلمين، فهم ما تمكنوا من الدرعية بسبب ضعف في المسلمين من أهلها أو انهزام منهم، ولكنهم تغلبوا عليها بهذين الأمرين:

أولاً: أن بعض الناس انخذلوا وتركوهم ولم يقاوموهم ولم يبقَ إلا أهل الصدق.

---

(١) ذكر الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ وهو ممن عاصر تلك الأحداث الدامية ـ شيئاً من هذه المواقف وعقبها بقوله: «إن هناك من أهل نجد من أعانهم وساعد المعتدين ممن لم يتمكن في قلبه الإيمان»، وكان الشيخ على يقين من ذلك حيث وعد بتحديد أعيانهم فيما لو سأله سائل عنهم. انظر: المقامات (ص٢١، ٢٤).

قال بعض العلماء في هذه القضية من قصيدة له:

وخانت لهم نجد لما قد أتوا بها ... وبار أمير مع وزير وعامل

ثانياً: أن البعض الآخر نقلوهم، وأدخلوهم ديار المسلمين، ودلوهم على عورات المسلمين، خصوصاً الأعراب والبادية، وكثير من الحاضرة.

وهكذا الفتن إذا جاءت قل من ينجو منها، وقل من يسلم منها، ولم يثبت إلا أهل الإيمان والصدق على ما أصابهم من القرح والقتل، لكنهم - رحمهم الله - صبروا حتى قيض الله لهم من قام بالأمر بعد النكبة، وهو الإمام تركي بن عبد الله رحمه الله، وأتاهم الفرج، وعادت لهم عزتهم ودولتهم، ورد الله الأعداء عنهم، فكان لهم ذلك بالصبر والثبات، فهذا الغرض من كتابة هذه الرسالة.

ثم ذكر الأدلة على هاتين المسألتين.

وقال: (وقد أجمع العلماء على أن من تكلم بالكفر هازلاً أنه يكفر)، لأن الله - جل وعلا - حكم على من قال الكفر هازلاً يعني مازحاً، فمن قال الكفر من غير إكراه، ولكنه قاله من باب التندر والضحك فإنه يكفر، وهذا كالذي حصل من المستهزئين في عهد النبوة، حيث قالوا: **«ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء»**[1]، ويعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، فأنزل الله - جل وعلا - فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، وهذا يدل على أنهم كانوا مؤمنين من قبل وليسوا منافقين؛ لأن المنافقين قال الله فيهم: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، ولكن هؤلاء قال فيهم: ﴿كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فدل على أنهم كانوا مؤمنين قبل هذه الوقعة، فلما

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/١٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/١٨٢٩)، والطبراني في الكبير (١٧٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقعوا فيها صاروا كفاراً مرتدين والعياذ بالله، ولم يقبل الرسول ﷺ عذرهم، وحكم الله ـ جل وعلا ـ عليهم بالردة، لكن مَنْ تاب منهم تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

والحاصل أن من تكلم بالكفر ووافق الكفار، فإن كان مكرهاً فإنه يُباح له ذلك بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فاستثنى الله من قال كلام الكفر بلسانه دون قلبه من أجل أن يتخلص من الإكراه فقط، فهو باق على دينه وعلى إيمانه، وهذه رخصة رخص الله فيها للمكره أن يتخلص من الإكراه وهو باقٍ على إيمانه.

أما من قال كلام الكفر غير مكره، بل قاله منشرحاً به صدره، أو قاله من أجل طمع الدنيا ونيل الوظائف وغير ذلك، فهذا مرتد عن دين الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ما السبب؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] فالذي حملهم على قول كلام الكفر وموافقة الكفار أنهم يريدون طمع الدنيا، فتعوضوا من الدين بالدنيا، فحكم الله عليهم بالكفر.

وأنا أذكر بعض الأدلة على ذلك، بعون الله وتأييده:

الدليل الأول: قول الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ **[البقرة: ١٢٠].**

فأخبر تعالى: أن اليهود والنصارى وكذلك المشركون، لا يرضون عن النبي ﷺ حتى يتبع ملتهم، ويشهد أنهم على حق.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ **[البقرة: ١٢٠]، وفي الآية الأخرى:** ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **[البقرة: ١٤٥]، فإذا كان النبي ﷺ لو يوافقهم على دينهم ظاهراً من غير عقيدة القلب ـ لكن خوفاً من شرهم ومداهنة ـ كان من الظالمين، فكيف بمن أظهر لعباد القبور والقباب أنهم على حق وهدى مستقيم؟! فإنهم لا يرضون إلا بذلك.**

الشرح:

لما قدم ـ رحمه الله ـ هذه المقدمة النافعة وفَصَّلَ فيها هذا التفصيل، أراد أن يذكر الأدلة على ما قاله؛ لأن هذا ليس مجرد قول من عنده، وإنما هو قول مبني على أدلة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وإجماع أهل العلم.

وهكذا كل عالم يقول قولاً لابد أن يذكر دليله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لاسيما في أمور العقيدة، وأمور الكفر والإيمان، فلا يجوز لأحد أن يُكفر أحداً إلا بتحقيق شيئين:

أولاً: يذكر الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وثانياً: ينظر هل هذا الدليل ينطبق على هذا الشخص أو لا ينطبق؟

فمسألة التكفير ليست سهلة، وهذا لا يقوم به إلا أهل العلم، لا يقوم به المتعالمون أو الجهال أو الذين عندهم غيرة وشدة في الدين من غير علم.

الدليل الأول قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

واليهود: هم المنتسبون إلى الديانة التي بعث الله بها موسى - عليه السلام - بالتوراة، قيل: سُموا باليهود من الهود وهو التوبة من قول موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، يعني: تبنا إليك، وقيل: سموا باليهود لأنهم من أولاد يهوذا ابن يعقوب.

والنصارى: قيل سموا بذلك نسبة إلى الناصرة بلدة في فلسطين(١)، وهم المنتسبون إلى دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ولذلك يسمون أنفسهم الآن بالمسيحيين ولا يسمون أنفسهم بالنصارى فراراً من الذم الذي لحق النصارى، وكذلك اليهود لا يسمون أنفسهم اليهود، بل يسمون أنفسهم إسرائيل فراراً من اللعنات التي صبها الله على اليهود، فهم يريدون أن يتبرؤوا من هذه التسمية، ولكن لن ينفعهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ﴾ **(لن)** نفي في المستقبل، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وكذلك المشركون من باب أولى لن يرضوا عن الرسول ﷺ وأمته.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فهم لا يكفيهم أنك تتنازل بعض التنازل عن بعض دينك، وإنما لابد أن تتحول عن دينك كله وتكون تابعاً لهم، هذا ما يريده اليهود

---

(١) لمعرفة الأقوال في سبب تسمية اليهود والنصارى انظر: تفسير الطبري (١/٣١٨)، وزاد المسير (١/٩١)، ولسان العرب (٣/٤٣٩)، والدر المنثور (١/١٨٢)، وفتح القدير (١/٩٤).

والنصارى من المسلمين على مدار التاريخ، اليهود يقولون: كونوا هوداً، والنصارى يقولون: كونوا نصارى؛ كما أخبر الله ـ عز وجل ـ عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، فالواجب علينا أن نتمسك بملة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي بُعث بها محمد ﷺ، ولا نتنازل عن ديننا لإرضائهم، والذي يلتمس رضاهم ويتنازل عن دينه يرتد عن دين الإسلام.

والله سبحانه قد بيَّن لنا ما يخفيه اليهود والنصارى والمشركون، أنهم لا يرضون عن المسلمين إلا أن يتخلوا عن دينهم، والآن تجد كثيراً منهم ينادون بالتقارب بين اليهودية والنصرانية والإسلام، وهذا كلام خطير فيه تسوية بين الحق والباطل وهم لايعترفون بالإسلام، فاليهود والنصارى لا يرضون بهذا ولا يكفيهم حتى يتخلى المسلمون عن دينهم، لكن اتخذوا هذه الحيلة من أجل أن يعترف المسلمون بأن دين اليهود والنصارى وماهم عليه الآن حق ومن باب الوسيلة لمقصودهم والخديعة للمسلمين، من أجل أن يترك المسلمون دينهم على التدرج؛ لأنهم لا يقدرون أن يقولوا مباشرة: اتركوا دينكم وتعالوا معنا، فنادوا بالتقارب بين اليهودية والنصرانية والإسلام، ثم إذا حصل التقارب واعترفنا بدينهم قالوا: أنتم اعترفتم أن ديننا صحيح فلماذا تبقون وحدكم ولا تأتون معنا؟!

وهكذا يتدرجون في شرهم ومكرهم وكيدهم، فلن ينخدع المسلمون بحيل اليهود والنصارى مهما تظاهروا بالمودة، وقد بَيَّن سبحانه وتعالى غايتهم بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ أي: تكون يهودياً أو تكون نصرانياً ولا تبقى مسلماً، وهذا خطاب للنبي ﷺ، وهو خطاب لأمته إلى أن تقوم الساعة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي بعث الله به محمداً ﷺ ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وأما اليهودية والنصرانية ـ الموجودتان الآن ـ فليست هدى؛ لأنها إما محرفة أو مبدلة، وإما منسوخة بالإسلام، فالذي يبقى على اليهودية والنصرانية بعد بعثة محمد ﷺ ليس هو على دين موسى ولا على دين عيسى، وإنما اتبع هواه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ما قال: ولئن اتبعت دينهم، فليس لهم دين بعد بعثة محمد ﷺ، فلو قال: ولو اتبعت دينهم. صار هذا اعترافاً بدينهم، فالذي لا يتبع الرسول ﷺ منهم متبع لهواه، وليس متبعاً لموسى ولا لعيسى، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، فلم يبقَ بعد بعثة محمد ﷺ دين إلا دين محمد وهو الإسلام، ومن زعم أنه باق على اليهودية أو النصرانية الصحيحتين فهو كاذب؛ لأن اليهودية والنصرانية نُسخت بالإسلام فصار متبعاً لهواه، ولم يتبع أمر الله سبحانه وتعالى.

فالمؤمن يدور مع أمر الله عز وجل، والله أمر باتباع هذا الرسول، فالذي يقول: أنا أبقى على دين اليهودية أو النصرانية. ليس صادقاً؛ لأنه لم تبق يهودية ولا نصرانية أو محكمة صحيحة بعد بعثة محمد ﷺ، لم يبقَ إلا الهوى.

قال تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي جاء الرسول من العلم ما هو؟ هو الوحي المنزل من الله ـ جل وعلا ـ بالقرآن والسنة، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ هذا وعيد من الله ـ جل وعلا ـ لمن اتبع أهواء اليهود والنصارى والمشركين أن الله تبرأ منه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرك؛ لهذا قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا

﴿تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، فالذي يريد النصر يبقى على هذا الدين مهما كلفه الثمن، والذي يتخلى عن هذا الدين إنما يضر نفسه، والدين سيبقى بإذن الله وسييسر الله له من يقوم به، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨] ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالله يُهيئ لهذا الدين من يقوم به من العرب أو من العجم؛ لأنه دين للجميع، وكم نصر هذا الدين من الأعاجم من ملوك وعلماء؛ نصروا هذا الدين بالعلم وبالسلطان.

فهذا الدين ليس خاصاً بالعرب، وإنما هو دين عالمي، وإذا تخلى عنه قوم يسر الله له قوماً آخرين يقومون به، فالله ـ جل وعلا ـ لا يضيع دينه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وإنما نحن إذا ضيعنا ديننا ضعنا، والدين يبقى، وييسر الله له حملة وأهلاً إلى أن تقوم الساعة.

فلا تحاول أنك تحصل على رضى اليهود والنصارى إلا بشيء واحد وهو أن تتخلى عن دينك نهائياً وتتبع ملتهم التي هم عليها، وهي ملة هوى وليست ملة دين؛ لأنهم لو كانوا يريدون الدين لاتبعوا هذا الرسول ﷺ، فهم لا يريدون الدين، وإنما يريدون ما يهوون وما يحبون.

فإذا كان هذا في اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، فما بالك بالمشركين القدامى والمحدثين، مثل: عُباد القبور والأضرحة والمشركين الأولين، كلهم سواء لا يرضون بالتوحيد، وإنما يرضون بأن يُدعى غير الله - جل وعلا - ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] فاذكر التوحيد عند أهل الشرك والبدع وعند الصوفية وانظر ماذا يفعلون بك، لا يرضون أنك تذكر التوحيد أبداً، أبغض شيء إليهم ذكر

التوحيد، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يفرحون بأن يُذكر دينهم ومعبوداتهم وأن يُثنى عليها.

قوله: (لا يرضون عن النبي ﷺ حتى يتبع ملتهم، ويشهد أنهم على حق) مع أنهم على باطل وليسوا على حق، واليوم يوجد من يقول: النصارى على حق واليهود على حق وكلها أديان سماوية، وكلهم يعبدون الله. فالذي يقول هذا يرتد عن دينه؛ لأنه جعل الكفر إيماناً، وسوى دين الكفر مع دين الإسلام، ولم يميز بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٢٠] ليس هناك هدى إلا هدى الله، وهو دين الإسلام، حصر الله الهدى في دين الإسلام، فمعناه أن الأديان التي غيره ليست هدى، كانت هدى في وقتها لكن لما غُيرت وبُدلت وحُرفت و نُسخت لم تبق هدى.

قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ انظر إلى السر، ما قال: ولئن اتبعت دينهم، بل قال: ﴿ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾؛ لأنه لم يبقَ لهم دين ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ليس فيه إلا دين واحد وهو الذي بعث الله به نبيه محمد ﷺ.

قوله: (وفي الآية الأخرى) التي في سياق آيات تحويل القبلة، قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ لا يمكن أنهم يستقبلون الكعبة؛ لأنهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون أهواءهم فقط، ولو جئتهم بالأدلة كلها ﴿بِكُلِّ ءَايَةٖ﴾؛ لأن الحق لا يخفى عليهم، فهم عصوا الله عن علم وبصيرة وليس عن جهل،

يعلمون أن هذا هو الحق ولكنهم خالفوه لهواهم فقط، وإلا هم علماء يعلمون أن استقبال الكعبة هو الحق لما يجدونه في التوراة والإنجيل من وصف الرسول ﷺ.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ بكل دليل وبرهان فإنهم لا يتبعون قبلتك؛ لأنهم ليس عندهم نقص في البراهين والأدلة على أن الحق ماجئت به بل عندهم علم بذلك، لكنهم لا يريدون الحق، ومن لا يريد الحق فلا حيلة فيه، لو تقيم عليه الجبال والدنيا كلها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، فالذي يتبع هواه لا يمكن أن تقنعه أبداً؛ لأنه لا يريد الحق، ولو تناطحت الجبال بين يديه لا يقبل.

وأيضاً هم فيما بينهم مختلفون فكيف يوافقونك، قال تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ النصارى يستقبلون المشرق، واليهود يستقبلون الصخرة، هم في أنفسهم ما توافقوا، فكيف يوافقونك أيها الرسول: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ هذا تيئيس لليهود والنصارى أن يترك الرسول ﷺ الحق الذي معه ويتبعهم، تيئيس لهم وإخبار من الله ـ جل وعلا ـ أنه لا يمكن أن يتزحزح هذا الرسول عن الحق، وفي ضمنه النهي للأمة أن تميل إليهم، فالذي يتبع أهواء اليهود والنصارى مخالف لنبينا محمد ﷺ، فلا مطمع لهم في إنك تترك ما أنت عليه وتطيعهم، وهذا تثبيت من الله ـ جل وعلا ـ لنبيه محمد ﷺ.

ثم قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ هذا مثل الآية الأولى، ما قال: ولئن اتبعت دينهم، وما قال: ولئن اتبعت قبلتهم؛ لأنهم ليس لهم دين صحيح ولا قبلة شرعية، بعد بعثة محمد ﷺ وبعد تحويل القبلة إلى الكعبة.

قوله: (فإذا كان النبي ﷺ لو يوافقهم)، يعني: إذا كان الرسول ﷺ لو فرض وأن وافق في الظاهر اليهود والنصارى على ما يريدونه منه ويترك الحق الذي معه ويتبع للباطل الذي معهم كان من الظالمين، فكيف بغيره ممن وافق عُباد القبور والأضرحة ودافع عنهم، وألف المؤلفات في الدفاع عنهم، والرد على أهل التوحيد؟ وهذا كثير موجود ـ والعياذ بالله ـ يوجد كُتَّاب ينتسبون إلى الإسلام وإلى العلم يؤيدون عبادة القبور والأضرحة، ويقولون: هذا تقرب إلى الله، وتوسل إلى الله وليس هو بشرك. إذاً ما هو الشرك؟ الشرك عبادة الأصنام ونحن لانعبد الأصنام فعملنا ليس بشرك.

فيقال لهم: الله ذكر عن المشركين الأولين أنهم إنما فعلوا ما فعلوا من باب التوسل، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهم اتخذوهم للتوسل، وهناك من يدافع عن هؤلاء، ويقول: هؤلاء جهال. ونقول: إلى متى الجهل؟! الجهل زال ببعثة محمد ﷺ، فالقرآن موجود والسنة موجودة والعلم موجود، ولكن هؤلاء لا يريدون الحق، ولذلك يتصيدون الشبهات والحكايات والأحاديث المكذوبة ويجعلونها في كتبهم ويؤيدون بها عبادة القبور، ويتركون الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة والإجماع؛ لأنهم يتبعون أهواءهم ولا يريدون الحق، يؤيدون عُباد القبور، وعُباد القباب والأضرحة، ويحشدون لهم كل ما بإمكانهم من الكذب، ومن الشبهات، ويجعلونها براهين قوية

على تصحيح ما هم عليه، وهذه مصيبة عظيمة، لكنه ابتلاء وامتحان من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده ليتميز المؤمن الصادق من المنافق.

قوله: (فكيف بمن أظهر لعباد القبور والقباب أنهم على حق وهدى مستقيم؟!) وهذا كثير، فهناك مؤلفات كثيرة الآن تؤيد عبادة القبور، وعبادة الأضرحة، وترد الأدلة الصحيحة التي تنهى عن ذلك، وإذا عجزوا عن ردها أولوها بما يُضحك العقلاء، أو حرفوها، ويتخذون الشبهات والأكاذيب والحكايات والمنامات أدلة وبراهين يؤيدون بها عبادة القبور، وهذا ليس تجنياً عليهم، بل هو موجود في كتبهم وردودهم على أهل التوحيد.

قوله: (فإنهم لا يرضون إلا بذلك) يعني: لا يرضون إلا أن تتابعهم على ما هم عليه، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، ومن تابعهم على ما هم عليه كان أخاً لهم، والله ـ جل وعلا ـ قال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ الركون هو الميل إليهم ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ـ ٧٥]، هذا تحذير للرسول ﷺ، لما حاولوا معه أن يتنازل عن شيء من دينه، قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١ـ٣] إلى آخر السورة[1].

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره (٣٣١/٣٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٤٧١/١٠)، والطبراني في الصغير (٤٤/٢)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا له: هذا لك=

فالله قطع طمعهم ؛ لأن الرسول لا يمكن أن يتحول عن دين التوحيد إلى دين الشرك ، وإن كانوا يعدونه أنهم يعبدون الله ، ويكون هذا من باب التعاون ، إذ يريدون أن يدمجوا آلهتهم مع الرب ـ سبحانه وتعالى ـ ويقولون : كلها عبادة ، وكلها دين ، هذا الذي يريدون. والآن نفس الحكاية ، خرج علينا من يريد دمج الإسلام مع اليهودية والنصرانية الكافرتين.

= عندنا يا محمد وكف عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ، فهي لك ولنا فيها صلاح ، قال : «ما هي؟» قالوا : تعبد آلهتنا سنة اللات والعزي ونعبد إلهك سنة ، قال : «حتى أنظر ما يأتي من عند ربي» ، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ ... ﴾ الآية.

الدليل الثاني: قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ **[البقرة: ٢١٧].**

الشرح:

هذا في قضية حصلت في عهد النبي ﷺ،[1] فقد أرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة عبدالله بن جحش رضي الله عنه تترصد أمور المشركين وتأتي بالأخبار للرسول ﷺ، فلما خرجوا وكانوا في مكان بين مكة والطائف في شهر رجب، وإذا بقافلة للمشركين قادمة من الطائف إلى مكة معها بضائع فاستعجل بعض المسلمين، وقتلوا رجلاً من المشركين يُقال له ابن الحضرمي، وهذا في شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال، وهذه غلطة حصلت من بعض المسلمين طار بها الكفار فرحاً، وقالوا: محمد وأصحابه يستحلون الأشهر الحرم ويقتلون فيها.

وأصاب المسلمين الذين حصل منهم هذا الخطأ غَمٌّ وَهَمٌّ شديدٌ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾ الله ذكر أن هذا خطأ كبير، ولا يجوز لا من المسلمين ولا من غيرهم، وهذا هو العدل أن الخطأ خطأ ممن كان ولو كان من الصحابة، فهذه غلطة بلا شك، لكن أنتم أيها المشركون كم عندكم

---

(١) أخرج هذه القصة عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٨٧)، والطبري في تفسيره (٢/ ٣٤٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٣٨٤)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٠٢)، والطبراني في الكبير (١٦٧٠)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١١) عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

من الأغلاط؟ كيف تعيرون المسلمين بغلطة واحدة، وأنتم عندكم أغلاط فظيعة؟! ولهذا قال: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أليس الكفار يصدون عن سبيل الله، أي: يمنعون من الدخول في الإسلام، ويبذلون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وهذه أعظم من القتل في الشهر الحرام؟!.

قوله: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: عندكم الكفر بالله عز وجل، وهذا أيضاً أشد من القتل في الشهر الحرام.

قوله: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ أي وأنتم الذين أخرجتم المسلمين من الحرم مع أن أهل الحرم ليس أنتم، بل أهله هم المسلمون، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] وقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي وكونكم تفتنون المسلمين وتحاولون صرفهم عن دينهم هذا أشد من القتل في الشهر الحرام، فأنتم:

أولاً: تصدون من يريد الدخول في الدين.

وثانياً: من دخل فيه تحاولون أنه يرتد عنه وتفتنونه في ذلك، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي من القتل في الشهر الحرام، فكيف تعيرون المسلمين بخطأ حصل من غير قصد، وأنتم عندكم أخطاء فظيعة؟ هذا رد عليهم من الله جل وعلا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ هذه جريمة أخرى أنهم لا يزالون يقاتلون المسلمين إلى أن تقوم الساعة، من أجل ماذا؟ هل من أجل أموالهم أو بلادهم؟ لا، بل ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ لا يقاتلونكم من أجل الأموال أو من أجل البلد، إنما يقاتلونكم من أجل أن يصدوكم عن دينكم.

قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وهذا تيئيس لهم من الله - جل وعلا - أنهم لا يستطيعون أن يردوا المسلمين جميعاً عن دينهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ تيئيس لهم أيضاً؛ لأنه لا يمكن أن يترك جميع المسلمين دينهم، نعم قد يتركه فئام منهم، أو جماعات، أو أفراد، ولكن لا يتركه كل المسلمين، قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله أو حتى تقوم الساعة**»[1]

ثم بيَّن الوعيد على من يرتد عن دينه فقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ﴿يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ بأن يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، فإن استمر إلى أن مات ولم يتب حبط عمله الصالح وصار من أصحاب النار، أما إن تاب قبل أن يموت ورجع إلى الإسلام تاب الله عليه ولم تحبط أعماله الصالحة ففي قوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ جعل حبوط الأعمال بالردة مرتباً على أمرين:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ، وقد أخرجاه من حديث جابر وثوبان والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهم - بألفاظ متقاربة.

الأمر الأول: الردة.

والأمر الثاني: الموت على الردة بدون توبة ، فمن حصل منهما الشرطان بطلت أعمالهم في الدنيا بالردة وخرجوا من الإسلام وفي الآخرة يكونون من أهل النار الخالدين فيها مع الكفار ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ ، أي : الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه ليس لهم محيد عنها ، ثم قال: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي ليس لهم منها خلاص ، ثم إنه فَرَّج عن المسلمين ؛ فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ففرج الله عن المسلمين الذين حصل منهم في الشهر الحرام ، وأنه سبحانه غفر لهم ، بسبب إيمانهم وهجرتهم وجهادهم في سبيل الله فعند ذلك فرح المسلمون بهذه البشرى من الله سبحانه وتعالى.

الشاهد من الآية: قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ﴾ ، مثل قوله تعالى : ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فاليهود والنصارى ما يريدون منا أن نبقى على الإسلام أبداً ، وإنما يريدون أن نترك الإسلام ، فهل نطيعهم؟ ولن يرضوا عنا حتى ولو تركنا بعض الدين ، فلا يرضون إلا أن نترك الدين نهائياً ، ونتحول إلى يهود أو نصارى ، هذا الذي يريدون.

والآن يُقاتلون المسلمين في أفغانستان ، وفي البوسنة والهرسك ، وفي الشيشان وفي العراق والصومال من أجل ماذا؟ من أجل الدين ، والدول الكبيرة من المسلمين ـ على ما فيها من ضعف وغيره ـ الآن يفككونها ؛ كما في أندونسيا وفي غيرها ، ولا يريدون لهذا الدين أن يكون باسمه دولة ؛ ولذلك ترون الآن أفعالهم مع المسلمين ، يقتلون ويشردون

ويهدمون البيوت ، فهم لا يريدون أموالاً ، لكن يحاربون هذا الدين كي لا تقوم له دولة على الأرض ، هذا قصدهم ، وهذه نفسيتهم منذ أن بعث الله نبيه محمداً ﷺ.

قال رحمه الله: فأخبر تعالى: أن الكفار لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، ولم يرخص في موافقتهم خوفاً على النفس والمال والحرمة، بل أخبر عمن وافقهم بعد أن قاتلوه ليدفع شرهم أنه مرتد، فإن مات على ردته بعد أن قاتله المشركون، فإنه من أهل النار الخالدين فيها، فكيف بمن وافقهم من غير قتال؟! فإذا كان من وافقهم بعد أن قاتلوه، لا عذر له، عرفت أن الذين يأتون إليهم ويسارعون في الموافقة لهم من غير خوف ولا قتال، أنهم أولى بعدم العذر، وأنهم كفار مرتدون.

الشرح:

قوله: (إن استطاعوا) أي لكن لن يستطيعوا، وهذا تيئيس لهم من ترك جميع المسلمين دينهم فالمسلمون لا يزال فيهم من يتمسك بهذا الدين على مر الزمان.

قوله: (ولم يرخص في موافقتهم)، موافقة الكفار فيها تفصيل على النحو التالي:

أولاً: موافقة الكفار على التنازل عن شيء من ديننا، هذا يُسمى **بالمداهنة** قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، فطاعة الكفار أو موافقة الكفار على ترك شيء من ديننا إرضاءً لهم هذا مداهنة محرمة وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١]، تتنازلون عن هذا القرآن أو عن شيء منه لأجل أرضاء الكفار، فإن تنازلنا عن شيء من ديننا إرضاءً لهم فهذا مداهنة محرمة.

ثانياً: أما إذا لم نتنازل عن ديننا لكن وافقناهم فيما يريدون، فمن وافقهم في الظاهر والباطن فهذه هي الموالاة، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥١) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ هم المنافقون ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢]، فالذي يحاول أن يرضي الكفار لأجل المستقبل، ويقول: أخاف إني احتاج لهم فيما بعد. فهذا ليس واثقاً بالله عز وجل، فهو يرضيهم، ويخاف أنه يحتاج لهم في المستقبل، ولا يتوكل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ ﴾ من أجل إذا أتى دائرة فيكون لنا يد عندهم، ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقد حصل ما وعد الله به ونصر الله الإسلام والمسلمين، وخاب المنافقون والحمد لله.

ثالثاً: أما من وافقهم في الظاهر دون الباطن، فهذا إن كان مكرهاً فلا حرج عليه، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾، أما إن وافقهم في الظاهر من دون إكراه، وإنما عن طواعية ورضا، طمعاً في مال، أو جاه، أو مكانه عند الكفار، فهذا حكمه حكم من وافقهم في الظاهر والباطن.

رابعاً: أما من وافقهم في الظاهر دفعاً لشرهم فهذه الموافقة هذا تُسمى بالمداراة، فتجوز مداراتهم بموافقتهم في الظاهر بما يدفع شرهم عن المسلمين، مع تمسكنا بديننا وعقيدتنا، قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ

مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨] يعني تقية، وهي قضية المداراة.

وهناك فرق بين المداراة والمداهنة:

المداهنة: أن نفتدي بديننا لأجل دنيانا.

المداراة: أن نفتدي بدنيانا من أجل ديننا، فنعطيهم شيئاً من المال، أو نعطيهم شيئاً من الأراضي، حتى من الزكاة نعطيهم ما يدفع شرهم، أو نعطي المؤلفة قلوبهم، هذا من باب المداراة لكف شرهم.

فهذا التفصيل لابد منه في هذه المسألة.

قوله: (ولم يرخص في موافقتهم خوفاً على النفس والمال والحرمة)، يعني: ما لم يبلغ الأمر إلى حد الإكراه.

قوله: (بل أخبر عمن وافقهم بعد أن قاتلوه ليدفع شرهم أنه مرتد)؛ لأن هذا ليس بمكره، والذي يوافقهم من غير إكراه ولا مداراة فهو مرتد.

قوله: (فإن مات على ردته بعد أن قاتله المشركون، فإنه من أهل النار الخالدين فيها)، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فدل على أن من مات على الردة فهو خالد مخلد في النار مثل الكافر الأصلي، ودلت الآية على أن مَنْ تاب قبل أن يموت تاب الله عليه، وهل ترجع إليه أعماله التي فعلها قبل الردة أو يبدأ من جديد؟

على قولين للعلماء:

القول الأول: أنها ترجع إليه. وهذا هو الصحيح، أنها ترجع إليه أعماله الطيبة التي فعلها قبل الردة لما تاب، لأن الله قيد حبوطها بالموت والردة.

القول الثاني: أنها لا ترجع إليه، ولكن يبدأ من جديد، فيعيد الحج إن كان حج قبل الردة لأن حجه باطل ويعيد الوضوء إن كان توضأ قبل الردة؛ لأنه وضوءه بطل[1].

قوله: (فكيف بمن وافقهم من غير قتال؟!) بل كيف بمن جاء بهم وأغراهم بالمجيء وخدمهم ودلهم على عورات المسلمين؟

قوله: (فإذا كان من وافقهم بعد أن قاتلوه، لا عذر له، عرفت أن الذين يأتون إليهم ويسارعون في الموافقة لهم من غير خوف ولا قتال، أنهم أولى بعدم العذر، وأنهم كفار مرتدون)، الذي يذهب إليهم ويجلبهم على المسلمين، ويدعوهم لقتال المسلمين، ويساعدهم ويحملهم ويمولهم، هذا مرتد لأنه ظاهر الكفار على المسلمين.

---

(١) اختلف أهل العلم في المرتد هل يحبط عمله بنفس الردة، أم لا يحبط إلا بالوفاة على الكفر، فقال الشافعي: لا يحبط له عمل إلا بالوفاة كافراً، وقال مالك: يحبط بنفس الردة، ويظهر الخلاف في المسلم إذا حج ثم ارتد ثم أسلم، فقال مالك: يلزمه الحج لأن الأول قد حبط بالردة، وقال الشافعي: لا إعادة عليه لأن عمله باق. انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢٠٧/١)، والأوسط لابن المنذر (٢٣٧/١)، وتفسير القرطبي (٤٨/٣)، والمجموع (٧/٢)، و المبسوط للسرخسي (٩٦/٢).

الدليل الثالث: قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ **[آل عمران: ٢٨].**

فنهى - سبحانه وتعالى - المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء وأصحاباً من دون المؤمنين، وإن كانوا خائفين منهم، وأخبر أن من فعل ذلك: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ **أي: لا يكون من أولياء الله الموعودين بالنجاة في الآخرة** ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ **وهو أن يكون الإنسان مقهوراً معهم، لا يقدر على عداوتهم. فيظهر لهم المعاشرة، والقلب مطمئن بالبغضاء والعداوة، وانتظار زوال المانع. فإذا زال، رجع إلى العداوة والبغضاء. فكيف بمن اتخذهم أولياء من دون المؤمنين من غير عذر، إلا استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، والخوف من المشركين وعدم الخوف من الله، فما جعل الله الخوف منهم عذراً؛ بل قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: ١٧٥].**

الشرح:

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ هذه **(لا)** الناهية، ولذلك جزمت الفعل **(يتخذ)** كسر تخلصاً من التقاء الساكنين، أصلها **(لا يتخذْ)** بالسكون ولما كان يلتقي ساكن مع ساكن حُركت الذال المجزومة بالكسرة تخلصاً من التقاء الساكنين ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي أهل الإيمان والإسلام ﴿الْكَافِرِينَ﴾ وهم الذين كفروا بالله - عز وجل - وبرسوله ﷺ، وأبوا أن يدخلوا في الإسلام عناداً واستكباراً وحسداً وغير ذلك من مقاصدهم التي صدتهم عن

الإيمان، فالله - جل وعلا - نهى المؤمنين عن اتخاذ هؤلاء أولياء بالمحبة والنصرة وغير ذلك من أنواع المقاربة الدينية، أما المقاربة الدنيوية؛ كما في المعاملات، وأمور السياسية، فهذا شيء آخر، لكن لا يتخذونهم أولياء في الأمور الدينية بالمحبة، فلا يحبونهم لأنهم أعداء الله، وكيف تحب من هو عدو لله والله يبغضه؟ ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، فالواجب أن تبغض من يبغضهم الله، وأن تعادي أعداء الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] إذا كان الله لا يحب الكافرين فكيف تحبهم أنت؟ أيهما مؤمن؟

وكذلك لا يجوز للمؤمنين أن يناصروهم، وأن يُعينوهم على ما يمكن كفرهم وينشر كفرهم في الأرض، فلا يجوز للمسلمين أن يُمكنوهم من بناء الكنائس في بلاد المسلمين، ولا أن يمكنوهم من الاستيطان في جزيرة العرب التي ظهر منها مشعل الإيمان، أما أن يدخلوا لأغراض مؤقتة ويرجعوا فهذا لا مانع منه، وليس هذا هو المقصود من إخراجهم المذكور في قول النبي ﷺ: **«أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»**[1]؛ كما فهم بعض الجهال. وإنما الممنوع تمكينهم من الاستيطان في جزيرة العرب وهذا فيه قطع للموالاة بين المؤمنين والكفار؛ لأن الكافر والمؤمن ضدان لا يجتمعان، وهذا نهي من الله يقتضي التحريم، ومفهوم الآية ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الواجب أن يتخذ المؤمنون المؤمنين أولياء ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فأنت تبغض الكافر ولو كان قريباً لك؛ لأن الله يبغضه لكفره بالله عز وجل، فأنت تبغضه وتعاديه لله جل وعلا، لكن ليس معنى ذلك أن تظلمه، وأن تجور عليه بغير حق، لا يجوز هذا، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، فأنت لا تجور عليه ولا تظلمه، ولكنك لا تحبه ولا تصادقه ولا تخالله، بل ابتعد عنه واتخذ من المؤمنين أولياء، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي هذا رد صريح على الذين ينادون الآن، ويقولون: لا يجوز كره الكافر. ونقول: بل الواجب كره الكافر، ومن قال: لا يجوز، فهذا منه محادة لله ولرسوله، وإنما نكره الكفار ونبغضهم لله عز وجل، وليس من أجل الهوى، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فلا تترك المؤمنين وتذهب تتخذ الكفار أولياء؛ لأن هذا لا يليق بالمؤمن ولايجوز له: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

فالواجب: أن تجعل ولايتك لإخوانك المؤمنين، ولو كانوا من أبعد الناس نسباً أو وطناً عنك، فالمؤمنون إخوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، دون نظر إلى أنسابهم وألوانهم وبلادهم، ودون نظر إلى تقدم وقتهم، فالمؤمنون إخوة متقدمهم ومتأخرهم، قريبهم في الوطن وبعيدهم في الوطن، قريبهم في النسب وبعيدهم في النسب، من أول الخليقة إلى آخر الخليقة

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].

ثم قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾، يعني: يتخذ الكافرين أولياء ويترك المؤمنين، ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ تبرأ الله ـ جل وعلا ـ منه، فالذي يقول: لا يجوز كره الكافر. هذا قد تبرأ الله منه في هذه الآية ـ والعياذ بالله ـ شاء أم أبى، فعليه أن يراجع نفسه ويتوب إلى الله ـ عز وجل ـ ولا يتمادى به الجهل، والعلماء بيَّنوا له أن هذا لا يجوز، فلا يتمادى به الهوى بعد البيان ويصر على هذه الكلمة الخبيثة القبيحة المحادة لله ولرسوله.

ثم قال تعالى ـ مستثنياً ـ: ﴿ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ هذا ما يسمى بالمداراة، فتدرأ شرهم بأن تعطيهم ما يريدون من مالك لدفع شرهم، أو أن تجيبهم إذا طلبوا منك أن تعاشرهم في الظاهر مؤقتاً، درءاً لشرهم، تعاشرهم ظاهراً درءاً لشرهم، أو أن تعطيهم شيئاً من المال لكف شرهم، هذا تقاة ومداراة لشرهم، وهذه رخصة من الله مثل حالة الإكراه، فالمداراة ودفع الإكراه رخصتان من الله ـ جل وعلا ـ للمؤمنين أن يتخلصوا من الضرر الذي يلحقهم من الكفار، أما أن توافقهم في الباطن بالتنازل عن شيء من دينك فهذا هو المداهنة، وهذا لا يجوز.

ثم قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ يحذركم الله من اطلاعه على ما في قلوبكم وأعمالكم ومن عقوبتة وبأسه إذا خالفتم أمره سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ وعيد أن المصير إلى الله والمرجع إلى الله، فإذا اتخذتم الكفار أولياء من دون المؤمنين في غير حالة التقية فإن الله لكم بالمرصاد، ما لكم محيد عن الله، وسترجعون إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في يوم من الأيام، وربما كان قريباً.

فالواجب أن تخاف الله ـ جل وعلا ـ الذي لا محيد لك عنه، وأن لا تخاف غيره، ولا تساوم على دينك من أجل طمع الدنيا، فإذا كانوا يريدون دنيا أعطهم الدنيا ولا تعطيهم دينك من أجل دنياك؛ لأنك إن أعطيتهم دينك من أجل دنياك فهذه مداهنة، أما إذا أعطيتهم دنياك حماية لدينك فهذه هي التقية التي رخص الله فيها، وهذا هو فرق بين ما بين التقية وما بين المداهنة.

التقية: أن تقدم مالك دون دينك.

و**المداهنة:** أن تقدم دينك دون مالك.

ولهذا يقول بعض السلف: **«إذا عرض البلاء فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم، فإذا جاوز البلاء فاجعلوا أنفسكم دون دينكم، واعلموا أن الخائب من خاب دينه، والهالك من هلك دينه، ألا لا فقر بعد الجنة، ولا غنى بعد النار؛ لأن النار لا يفك أسيرها، ولا يبرأ ضريرها، ولا يطفأ حريقها»**[1]، فالدين لا تُفرط فيه أبداً لأنه نجاتك، فإذا فرطت فيه هلكت.

قوله: (فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء) معنى الولاية بفتح الواو: المحبة والصداقة، واتخاذهم أولياء يعني: تحبهم وتصادقهم.

قوله: (وأصحاباً) لا تتخذ الكافر صاحباً لك؛ لأنك إذا صاحبته فقد واليته، وليس معنى ذلك أنك تظلمه أو تعتدي عليه، أو أنه يحرم التعامل معه بالبيع والشراء،

---

(١) أخرج هذا الأثر أبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٤/٢٩٤)، والمروزي في الفتن (١/١٤٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٤٦)، (٤/٣٤٧)، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (١/٤٢٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦/٤١٧) عن جندب ﷺ.

أو باستئجاره لعمل، أو بالعمل عنده لأجل حاجتك، هذا تعامل دنيوي لا يدخل في أمر الدين، فيجب الفرق بين هذا وهذا.

قوله: (وإن كانوا خائفين منهم) أي وإن كان المؤمنون خائفين من الكفار فلا تجوز موافقتهم ما لم يبلغ الخوف إلى الخطر، فحينئذٍ يجوز اتخاذ التقية بأن تعطيهم شيئاً من الدنيا لدفع شرهم؛ تنازلاً عن الدنيا من أجل الحفاظ عن الدين، فتقدم مالك دون دينك.

قوله: (وأخبر أن من فعل ذلك: ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾) هذا وعيد شديد من الله - عز وجل - لأن الله تبرأ منه، ومن تبرأ الله منه ماذا تكون حاله، ومن هو وليه، ومن هو نصيره؟

قوله: (أي: لا يكون من أولياء الله الموعودين بالنجاة في الآخرة)، أي: ليس معناه أنه يكفر، لكن معناه أنه وعيد شديد، وهذه الآية من آيات الوعيد، فمن فعل ذلك فهو متوعد بأنه لا ينجو في الآخرة من العذاب، والمؤمن قد يُعذب في الآخرة.

قوله: (وهو أن يكون الإنسان مقهوراً معهم) قال هنا: **(مقهوراً)**، وسبق أنه قال: **(الخوف)** يعني: الخوف الذي لم يصل إلى حد القهر، أما إذا وصل الخوف إلى حد القهر جازت التقية، وهي المداراة دفعاً لشرهم.

قوله: (فيظهر لهم المعاشرة، والقلب مطمئن بالبغضاء والعداوة) يظهر لهم من الكلام والمال ما يدفع شرهم عنه، وهذه رخصة من الله - سبحانه وتعالى - وهذا ما يُسمى بالمداراة.

قوله: (فكيف بمن اتخذهم أولياء من دون المؤمنين من غير عذر) فكيف بمن يتقرب إليهم ويطلب رضاهم من غير عذر، وليس لهم سلطة عليه، ولا أكرهوه ولا

قهروه، وإنما عنده محبة لهذا الشيء، فهذا هو الذي عليه الوعيد؛ لأنه فعل المحرم بدون عذر شرعي.

قوله: (إلا استحباب الحياة الدنيا على الآخرة) هذا الذي قلناه أنه إذا قدم دينه دون ماله ودون حياته الدنيا، فهذا يكون عليه الوعيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، فمن أطاعهم وصادقهم وأحبهم من أجل أن يعطوه من الدنيا وينال من الدنيا، فهذا هو المتوعد أو حفاظاً على ماله.

قوله: (والخوف من المشركين وعدم الخوف من الله) الخوف من المشركين الذي ما وصل إلى حد القهر، وإنما هو جبن وهلع في قلبه وضعف إيمان، فإذا كان الخوف لا يصل إلى حد القهر فلا يجوز له أن يصانعهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قوله: (فما جعل الله الخوف منهم عذراً؛ بل قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾) هذا في سياق غزوة أحد لما حصل على المسلمين ما حصل من النكبة، وانتهت المعركة وقفل المشركون إلى مكة، ورجع المؤمنون إلى المدينة بعدما دفنوا شهداءهم، جاءهم خبر من الكفار بأننا سنرجع إليكم ونقضي عليكم، وهذه حرب نفسية والدماء ما زالت تسيل من الجراح التي في المؤمنين من الكفار، فما تضعضع المؤمنون، بل أمر النبي ﷺ الذين رجعوا من أحد أن يخرجوا بجراحهم في طلب الكفار إلى أن بلغوا مكاناً يُقال له حمراء الأسد، فعسكروا

فيه، فلما بلغ المشركين أن المسلمين خرجوا في طلبهم أصابهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا إلا وفيهم قوة[1].

فلو أن المسلمين انهزموا في المدينة وذلوا وخافوا لرجع عليهم الكفار، ولكن لما تشجعوا وخرجوا جعل الله العاقبة لهم، وذكر الله ـ جل وعلا ـ هذا في آخر سورة آل عمران، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ أي: استجابوا لله وللرسول وخرجوا وهم مصابون ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: مندوب الكفار، والناس يُطلق على الواحد، ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وهم الكفار ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ يعني: سيرجعون لكم مرة ثانية، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾، فما تضعضعوا لما سمعوا هذا الكلام وهذا التهديد، بل زادهم إيماناً ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، توكلوا على الله ـ عز وجل ـ ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا، ولا نلتفت إلى تهديد أحد؛ لأن الله هو حسبنا وكافينا، معتمدين على الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ الموكول إليه الأمر.

فلما بلغ الكفار صلابة المسلمين أصابهم الرعب وواصلوا السير إلى مكة، ولم يرجعوا ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، أي: رجع المسلمون بنصر وأجر من ربهم.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٤٨، ٤٩)، وتفسير الطبري (٤/١٧٦ ـ ١٨٢)، وتاريخ دمشق (١١/٢٢٠)، وتفسير ابن كثير (١/٤٢٩)، والبداية والنهاية (٤/٤٩)، والكامل في التاريخ (٢/٥٧)، والدر المنثور (٢/٣٨٨، ٣٨٩).

ثم قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فهذا الخبر الذي بلغهم هو من الشيطان ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ قيل المعنى: يخوفكم بأوليائه وهم الكفار، وقيل: يخوف أولياءه من المنافقين[1]؛ لأن المنافقين أولياء الشيطان ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وهذا الذي حصل من المسلمين أنهم لم يخشوهم وإنما خشوا من الله سبحانه وتعالى.

هذا هو الشاهد من الآية: أنه لا يجوز للمسلمين أن يخشوا الكفار، وإنما يخشون الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويعتمدون عليه.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨٣/٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨٢٠/٣، ٨٢١)، وتفسير ابن كثير (٤٣٢/١)، والدر المنثور (٣٩١/٢).

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

فأخبر تعالى: أن المؤمنين إن أطاعوا الكفار، فلابد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام؛ فإنهم لا يقنعون منهم بدون الكفر، وأخبر: أنهم إن فعلوا ذلك، صاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ولم يرخص في موافقتهم وطاعتهم خوفاً منهم.

وهذا هو الواقع؛ فإنهم لا يقتنعون ممن وافقهم إلا بشهادة أنهم على حق، وإظهار العداوة والبغضاء للمسلمين، وقطع اليد منهم.

ثم قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٠] ففي ولايته وطاعته، غنية وكفاية عن طاعة الكفار.

فيا حسرة على العباد: الذين عرفوا التوحيد، ونشئوا فيه، ودانوا به زماناً. كيف خرجوا عن ولاية رب العالمين، وخير الناصرين. إلى ولاية القباب وأهلها، ورضوا بها بدلاً عن ولاية من بيده ملكوت كل شيء...؟ !! بئس للظالمين بدلاً.

الشرح:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ هذا نداء من الله للمؤمنين ﴿ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فيما يطلبون منكم من التخلي عن دينكم ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾، يعني: يردوكم عن الدين، فدل على أن طاعة الكفار في التخلي عن دين الإسلام ردة؛ لأن الله قال: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ فإذا أطعنا الكفار وتخلينا عن ديننا أو عن شيء منه؛ كما لو قالوا لنا: لا تصلوا.

فأطعناهم، لكنا بذلك مرتدين والعياذ بالله، فالله أمرنا ألا نطيعهم، ولا نتخلى عن شيء من ديننا، فإن تخلينا عن شيء من ديننا طاعة للكفار فهذه ردة.

فالواجب على المسلمين الثبات على دينهم مهما كلفهم الأمر، ولا يتراجعوا عن شيء من دينهم؛ لأن هذا هو المداهنة، أما أنهم يجيبون الكفار في الأمور التي ليست من الدين، بأن يعطوهم شيئاً من المال، أو بإظهار شيء من المعاشرة الظاهرة مع طمأنينة القلب بعداوتهم، فهذا مرخصٌ فيه، وتركه أولى، لكن أن نعطيهم شيئاً من ديننا تحت تهديدهم، فهذا أمر لا يجوز، ومن فعله فقد أرتد عن دين الإسلام.

قوله: (فأخبر تعالى: أن المؤمنين إن أطاعوا الكفار، فلابد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام) لأن الكفار ما يرضيهم أن تعطيهم الدنيا، ولا يرضون إلا بأن يرتد المسلمون عن دينهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١]، فدل على أن المسلمين لا يجوز لهم بحال من الأحوال أن يتنازلوا عن شيء من دينهم مهما كلفهم الأمر، ومن فعل ذلك فقد ارتد عن الإسلام، أما أن يجيبهم المسلم بأشياء في غير الدين؛ في الأموال، أو في الكلام، أو في الأمور الظاهرة التي ليست من الدين، فهذا هذا لا بأس به عند الحاجة أو عند الضرورة.

قوله: (فلابد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام) الكافر لا يرضى عنك أيها المسلم إلا بأن تتخلى عن دينك، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

والآن الذين ينادون بالحوار بين الأديان الثلاثة يريدون بذلك أن نعترف بدينهم، ودينهم باطل، فكيف نعترف به وهو كفر؟ ثم إذا اعترفنا بدينهم لا يرضيهم إلا أن نتخلى عن ديننا، فهم يريدون الأمرين:

أولاً: أن نعترف بدينهم، فنقول: أنتم على دين صحيح. وهذا لا يجوز وهو ردة عن الإسلام، فنحن لا نصحح الكفر، ولا نعترف أنه دينٌ صحيح.

ثانياً: ثم لا يرضيهم أنك تعترف بدينهم، بل لابد أن تترك دينك، ويقولون: ما دمتم اعترفتم أن ديننا صحيح فلماذا تخالفوننا؟ تعالوا معنا من أجل أن نؤيدكم وننصركم ونحميكم.

هذا الذي يريدون، فالواجب على المسلمين أن يتنبهوا لدسائس الكفار.

قوله: (فإنهم لا يقنعون منهم بدون الكفر) لا يقنعون إذا اعترفنا بأن دينهم صحيح مع أن ذلك ردة، بل يقولون: اجعلونا نجتمع على ديننا ونتعاون. وهذا من كيد الكفار، فهم لا يأتون معنا أبداً، ولكن يريدون أن نكون معهم على كفرهم.

قوله: (وأخبر: أنهم إن فعلوا ذلك، صاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرة)؛ لأنهم ضيعوا دينهم، ولا سعادة لهم إلا بهذا الدين، فإذا ضيعوه خسروا الدنيا والدين، والذين فعلوا هذا الفعل خسروا الدنيا والآخرة، ولو أنهم بقوا على دينهم

وتمسكوا به لأفلحوا في الدنيا والآخرة، ولو حصل عليهم ما يحصل فإنهم يصبرون ؛ لأن هذا من الجهاد في سبيل الله.

قوله: (ولم يرخص في موافقتهم وطاعتهم خوفاً منهم، وهذا هو الواقع)، لأن الله - جل وعلا - يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، ويقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: (وهذا هو الواقع) أي من بعض أهل زمانه في وقت محاصرة الدرعية فإنهم أطاعوا العدو خوفاً منهم ولم يخافوا من الله.

قوله: (فإنهم لا يقتنعون ممن وافقهم إلا بشهادة أنهم على حق)، أي: بأن يشهد المسلم أن دين الكفار صحيح، والنصارى عندهم أن الله ثالث ثلاثة، وليس هناك مسلم - إن شاء الله - يقول بقول النصارى: إن الله ثالث ثلاثة، ولا بقول اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأيضاً المشركون لا يرضون إلا أن تقولوا: إن عبادة القبور والأضرحة صحيحة، وإنهم على حق، فالذي يقول: إن الكفر حق، وإنه دين صحيح، يكفر ويرتد عن دينه.

قوله: (وإظهار العداوة والبغضاء للمسلمين، وقطع اليد منهم)، أي: لا يرضون إلا أنكم تعترفون بصحة دينهم الباطل، وأن تتركوا دينكم الصحيح، وأن تكونوا معهم وتتركوا المؤمنين وتتخلوا عن إخوانكم، وتكونوا في ولايتهم، لا يرضون بدون هذه الأمور.

ثم قال بعدها: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ مثل ما قال الرسول ﷺ والصحابة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولما

قال أبو سفيان بعدما حدث للمسلمين في موقعة أحد من الهزيمة والقتل: لنا العزى ولا عزى لكم. قال النبي ﷺ: **«ألا تجيبونه؟»**، قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: **«قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»**[1]، هذا هو الجواب الحاسم الذي يقطع أطماعهم.

والنصر إنما يكون من عند الله ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، فالذي يلتمس النصر من الكفار ومن أعداء المسلمين هذا خاسر؛ لأن النصر من عند الله ـ جل وعلا ـ وبيده سبحانه وتعالى، ولكنه لا ينصر إلا من ينصره، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. أي ينصر دينه وعباده المؤمنين.

لكن هذا يحتاج إلى إيمان قوي واقتناع بأن النصر من عند الله وأن الخير بيد الله، وأن نواصي العباد بيد الله، وأما إذا ضعف الإيمان وتضعضع فإنها تأتي الآفات.

قوله: (يا حسرة على العباد: الذين عرفوا التوحيد، ونشئوا فيه، ودانوا به زماناً) يتأسف الشيخ ـ رحمه الله ـ على ناس عاشوا في نجد تحت دعوة التوحيد، وعرفوا الحق، وعاشوا في نعمة ورخاء تحت حكم إسلامي، فلما جاء الأعداء انضموا إليهم وتركوا المسلمين، وصاروا مع عباد القبور بعدما كانوا مع الموحدين.

قوله: (كيف خرجوا عن ولاية رب العالمين، وخير الناصرين إلى ولاية القباب وأهلها)، أي: صاروا مع عبدة القباب والأضرحة والقبور، وصاروا يثنون عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

ويصاحبونهم ويؤيدونهم على المسلمين، انضموا إليهم وإلى جيشهم، هذا حصل والعياذ بالله، فالشدائد إذا جاءت تميز المؤمن الصادق من المنافق وضعيف الإيمان.

والمراد بـ **(القباب)** البنيان الذي على القبور التي يعبدونها من دون الله، وهذا موجود ومستمر إلى الآن في كثير من البلاد، جعلوا قباباً على القبور، وصاروا يطوفون بها ويتقربون إلى الموتى بالذبائح والنذور والاستغاثة وبجميع أنواع العبادة والعياذ بالله.

والمسلمون ـ ولله الحمد ـ ثبتوا وأصابهم ما أصابهم، لكن الله أعاد لهم الكرة، وعادت دولتهم ودعوتهم ـ والحمد لله ـ ولا تزال، فما حصل للكافرين أو للقبورين طلبهم، ولا محو الدعوة ولا أزالوها؛ لأنها دعوة حق، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، فلو كانت دعوة دنيا أو دعوة رئاسة أو ملك لزالت من أول عاصفة، ولكن لما كانت دعوة حق وصدق ما ضرها ما جرى على أهلها، بل عادت كما كانت ولا تزال ولله الحمد.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢]

فأخبر تعالى: أنه لا يستوي من اتبع رضوان الله، ومن اتبع ما يسخطه ومأواه جهنم يوم القيامة. ولا ريب أن عبادة الرحمن وحده ونصرها، وكون الإنسان من أهلها: من رضوان الله، وأن عبادة القباب والأموات ونصرها والكون من أهلها: مما يسخط الله، فلا يستوي عند الله من نصر توحيده ودعوته بالإخلاص، وكان مع المؤمنين، ومن نصر الشرك ودعوة الأموات وكان مع المشركين.

فإن قالوا: خفنا!! قيل لهم: كذبتم وأيضاً: فما جعل الله الخوف عذراً في اتباع ما يسخطه، واجتناب ما يرضيه.

وكثيراً من أهل الباطل: إنما يتركون الحق خوفاً من زوال دنياهم، وإلا فيعرفون الحق ويعتقدونه، ولم يكونوا بذلك مسلمين.

الشرح:

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا استفهام إنكاري﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ أي رجع ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لا يستوون أبداً، والذي اتبع رضوان الله - جل وعلا - هو المتمسك بدينه، والذي تخلى عن دينه هو الذي رجع بسخط من الله ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ مصيره النار - والعياذ بالله - في الدار الآخرة، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

فهذه مقارنة بين من تخلى عن دينه وأطاع الكفار في التخلي عن دينه، وبين من ثبت على دينه وصبر على البلاء ونال رضوان الله جل وعلا.

وهل نفعه تنازله عن دينه وطاعته للكفار؟ الجواب: ما نفعه شيئاً، وإنما باع دينه ـ والعياذ بالله ـ أما الذي ثبت على دينه وصبر على المحنة فإنه نال رضى الله ـ جل وعلا ـ عنه، ففرق بين من يرضى الله عنه ومن يسخط عليه.

قوله: (فأخبر تعالى: أنه لا يستوي من اتبع رضوان الله، ومن اتبع ما يسخطه ومأواه جهنم يوم القيامة) والله إنما يرضى عمن تمسك بدينه ولم يتنازل عنه بحال من الأحوال، هذا هو الذي اتبع رضوان الله جل وعلا، والذي يرجع بالسخط هو الذي يتنازل عن دينه ولا يصبر على ما يصيبه من العدو، والابتلاء والامتحان يجريان على العباد لأجل أن يتميز هذا من هذا، وإلا لو كانت الدنيا رخاء دائماً ما تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، فهذه المحن وهذا التسلط من الأعداء يجريه الله ـ جل وعلا ـ لأجل أن يتميز الصادق من الكاذب، كما في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ١١].

فالحكمة ظاهرة في إجراء هذه المحن وتسلط الكفار على المسلمين في بعض الأحيان، وهي: أن يتميز الثابت على إيمانه الصادق في دينه من ضعيف الإيمان المهزوز أو المنافق الذي يتظاهر بالإيمان وهو كاذب، قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، نحن لا نعلم الصادق من الكاذب إلا بهذه الفتن، فإذا لم تأت الفتن لم ندر من الصادق ومن الكاذب، ولكن إذا جاءت الفتن انحاز أهل الكذب وأهل النفاق وصاروا مع الكفار، ولم يبق إلا أهل الإيمان الصادقين في إيمانهم.

قوله: (ولا ريب أن عبادة الرحمن وحده ونصرها، وكون الإنسان من أهلها من رضوان الله) بماذا يُنال رضوان الله؟ **الجواب:** يُنال بعبادة الرحمن وحده، والتماس طاعته، والصبر على دينه.

قوله: (و أن عبادة القباب) التي على القبور المعروفة في بلاد الإسلام مع الأسف، وأول من أحدث البناء على القبور ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[1] ـ هم الشيعة الفاطميون في مصر وفي غيرها، لما استولوا على المغرب وعلى مصر بنوا القباب على القبور، ثم قلدهم الصوفية والخرافيون من غير الشيعة، فصاروا يبنون على القبور، والمسجد الذي لا يوجد فيه قبر ليس له قيمة عندهم، فلا يذهبون إلى المساجد الخالية من القبور.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٦٧): «لم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور، وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك، ومن بدع الجهمية والمعتزلة والرافضة ما هو معروف لأهل العلم، فبنوا المشاهد المكذوبة؛ كمشهد علي ﷺ وأمثاله، وصنف أهل الفرية الأحاديث في زيارة المشاهد والصلاة عندها والدعاء عندها وما يشبه ذلك، فصار هؤلاء الزنادقة وأهل البدع المتبعون لهم يعظمون المشاهد ويهينون المساجد، وذلك ضد دين المسلمين، ويستترون بالتشيع» اهـ.

وهذه فتنة والعياذ بالله ، فأول من أظهر هذا هم أعداء الله الشيعة الذين اندسوا في الإسلام لإفساده، وهم صنيعة من صنائع اليهود، أو من صنائع المجوس ؛ لأن الشيعة على قسمين :

- شيعة من صنائع المجوس.
- وشيعة من صنائع اليهود.

يتعاونون فيما بينهم بدعوى حب أهل البيت على تفريق المسلمين ، وأعانهم على ذلك الصوفية من المنتسبين للسنة ، الذين ليسوا شيعة في الأصل لكن يحبون عبادة القبور ويحنون إليها ، فتعاونوا مع هؤلاء الشيعة وقاموا ببناء هذه القباب على القبور ، ويحثون عليها ويحنون إليها كأنهم عطشى ممنوعين من الماء البارد ، ويدعون إليها بحجة إحياء الآثار ، ويقولون : هذه آثار الصالحين لماذا تُطمس؟ وهي تذكر بالصالحين.

وما هي إلا وسيلة إلى الشرك ، فهي أولاً تُسمى آثاراً ، ثم يُقال : إن فيها بركة ، ثم في النهاية تُعبد من دون الله عز وجل ، وهذا مكر وحيلة وإرادة شر بالمسلمين ، ويجب التنبه لهذه الأمور وعدم التساهل فيها.

فقوم نوح ـ عليه السلام ـ لماذا عبدوا الأصنام ؟ الجواب : لأنهم عظموا الموتى ؛ عظموا الصالحين ـ وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا ـ عظموهم وغلوا في حقهم حتى عبدوهم من دون الله[1].

---

(١) أخرج أبو الشيخ في العظمة (٥/١٥٩٠) عن محمد بن كعب القرظي قال : «كان لآدم ـ عليه السلام ـ خمسة بنين : وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، وكانوا عباداً ، فمات رجل منهم فحزنوا عليه حزناً شديداً ، فجاءهم الشيطان فقال : حزنتم على صاحبكم هذا؟ قالوا : نعم ، قال : هل لكم أن أصور مثله في قبلتكم إذا نظرتم إليه ذكرتموه؟ فقالوا : لا ، نكره أن تجعل لنا في قبلتنا شيئاً نصلي إليه ، قال : فأفعله في مؤخر المسجد؟ قالوا : نعم ، فصوره لهم حتى مات خمستهم ، فصور صورتهم في مؤخر المسجد ، فتنقصت الأشياء حتى تركوا عبادة الله وعبدوا هؤلاء الخمسة ...» وانظر : تفسير ابن أبي حاتم (١٠/٣٣٧٥ ، ٣٣٧٦) ، وتفسير ابن كثير (٢/٢٢٤) ، والدر المنثور (٨/٢٩٤).

وهذا هو الواقع اليوم وهو الغلو في الصالحين، يقولون: فلان ولي من أولياء الله، فإذا مات بنوا على قبره قبة، ووضعوا عليه الزخارف والأستار والمباخر، وجعلوا عليه سدنة وصناديق للصدقات والتبرعات، فصارت القبور أصناماً مثل اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وقوم نوح إنما أشركوا بسبب الغلو في الصالحين، فالخطة واحدة وهي شيطانية من قديم الزمان وحديثه.

فالواجب على المسلمين أن يصمدوا وأن ينهوا عن الغلو وعن إحياء آثار الصالحين والمعظمين؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، لكن الشيطان يقول لهم الآن: هذه آثار تاريخية ترون فيها حضارة الأولين. ثم بعد ذلك يقول لهم: هذه ليست مجرد آثار تاريخية، هذه أصحابها ينفعون ويضرون ويقضون الحاجات. ثم يبنون عليها فتصير أصناماً تعبد من دون الله.

فيجب التنبه لمثل هذه الأمور ولكيد شياطين الإنس والجن، وسد الذرائع المفضية إلى الشرك والكفر، والشرك والكفر إنما يأتيان شيئاً فشيئاً، فإذا فُتحت الذرائع ووسائل الشرك جاء الشرك ولو متأخراً.

قوله: (فلا يستوي عند الله من نصر توحيده و دعوته بالإخلاص، و كان مع المؤمنين. و من نصر الشرك و دعوة الأموات و كان مع المشركين)، لا يستوي هذا وهذا عند الله عز وجل، ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، هذا استفهام إنكاري، لا يستوون أبداً.

قوله: (فإن قالوا: خفنا!!. قيل لهم: كذبتم) إذا قالوا: عملنا ما يريدون منا لأننا خفنا منهم. قلنا:

أولاً: هذا كذب، هم ما خوفوكم، بل أنتم الذين فيكم جبن وضعف إيمانكم فتوقعتم منهم ذلك، فبادرتم بطاعتهم دون أن يخوفوكم.

ثانياً: لو فرضنا أنهم خوفوكم لم يجز لكم أن تطيعوهم؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قوله: (و أيضاً: فما جعل الله الخوف عذراً في اتباع ما يسخطه، و اجتناب ما يرضيه) أي ما لم يصل الخوف إلى حد الإكراه، فحينئذٍ الإكراه يُدفع مع طمأنينة القلب ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ولكن هؤلاء ما أكرهوا، فبمجرد أن الكافرين يعرضون خطة يبادرون بتنفيذها والاستجابة لها دون معارضة.

قوله: (وكثيراً من أهل الباطل: إنما يتركون الحق خوفاً من زوال دنياهم) وكان المفروض العكس أنهم يتركون دنياهم خوفاً على دينهم؛ لأن الدنيا زائلة، والدنيا إذا زالت يعوض الله عنها؛ لأن الرزق بيد الله، لكن الدين إذا زال ما الذي يعوضه؟

وما أحسن قول القائل:

وكل كسر فإن الدين يجبره   وما لكسر قناة الدين جبران[(١)]

إذا زال الدين ماذا يبقى؟ لو تعطى الدنيا كلها فإنها لا تنفعك، أما إذا بقي معك الدين ولو زالت الدنيا كلها ما ضرك شيء بإذن الله.

---

(١) هذا البيت من شعر أبي الفتح علي بن محمد الحسين البستي، الشاعر الناثر، والأديب الأريب، والمحدث الفاضل، والفقيه الشافعي، وُلد في مدينة بست من بلاد أفغانستان الآن في حدود سنة ثلاثين وثلاثمائة. انظر: قصيدة عنوان الحكم (ص٧، ٤٣).

قوله: (وإلا فيعرفون الحق و يعتقدونه، ولم يكونوا بذلك مسلمين) لا يكفي أنه يعرف الحق ويعتقده، بل لابد من الالتزام به وعدم التنازل عنه.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ [النساء: ٩٧]، أي: في أي فريق كنتم، أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟ فاعتذروا عن كونهم ليسوا في فريق المسلمين: بالاستضعاف، فلم تعذرهم الملائكة، وقالوا لهم: ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

ولا يشك عاقل: أن أهل البلدان الذين خرجوا عن المسلمين، صاروا مع المشركين وفي فريقهم وجماعتهم، هذا مع أن الآية نزلت: في أناس من أهل مكة، أسلموا، واحتبسوا عن الهجرة، فلما خرج المشركون إلى بدر أكرهوهم على الخروج معهم، فخرجوا خائفين، فقتلهم المسلمون يوم بدر، فلما علموا بقتلهم تأسفوا، وقالوا: قتلنا إخواننا. فأنزل الله فيهم هذه الآية[1].

فكيف بأهل البلدان: الذين كانوا على الإسلام، فخلعوا ربقته من أعناقهم، وأظهروا لأهل الشرك الموافقة على دينهم، ودخلوا في طاعتهم، وآووهم ونصروهم، وخذلوا أهل التوحيد، واتبعوا غير سبيلهم، وخطئوهم، وظهر فيهم: سب المسلمين وشتمهم، وعيبهم، والاستهزاء بهم، وتسفيه رأيهم ـ في ثباتهم على التوحيد والصبر عليه، وعلى الجهاد فيه ـ وأعانوا العدو على أهل التوحيد طوعاً لا كرهاً، واختياراً لا اضطراراً.

---

(١) أخرج البخاري (٧٠٨٥) بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ الآية.

فهؤلاء أولى بالكفر والنار من الذين تركوا الهجرة شحاً بالوطن، وخوفاً من الكفار، وخرجوا في جيشهم مكرهين خائفين.

فإن قال قائل: هلا كان الإكراه على الخروج عذراً للذين قتلوا يوم بدر، قيل لايكون عذراً لأنهم في أول الأمر لم يكونوا معذورين إذ أقاموا مع الكفار، فلايعذرون بعد ذلك بالإكراه لأنهم السبب في ذلك حيث أقاموا معهم وتركوا الهجرة.

الشرح:

الدليل السادس من القرآن الكريم، هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٧ ـ ١٠٠].

هذه الآيات نزلت في ترك الهجرة، وهي: الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام(١)، فيجب على المسلم أن يهاجر بدينه من بلد لا يستطيع إظهار دينه فيها، وليس الإظهار أنه يُتْرَك يصلي أو يتعبد ولا يمنع من ذلك، لكن الإظهار أنه يعلن أن الإسلام هو الدين الحق وأن ما عداه باطل، وأن الله أوجب على الخلق جميعاً اتباع

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/٥٩٢)، والكافي في فقه ابن حنبل (١/١٨٧)، والمغني (٩/٢٣٦)، ومجموع الفتاوى (٢٨/٢٠٤)، وفتح الباري (١/١٦) وفتح القدير (١/٢١٨).

رسول الإسلام، وأن الشرائع نُسخت بشريعة الإسلام، ويدعو الناس إلى الإسلام، هذا إظهار الدين.

أما إنهم يتركونه يصلي ويصوم هذا ليس إظهاراً للدين؛ لأن هذا العمل لا يتعدى نفعه صاحبه، والواجب نشر الإسلام والدعوة إلى الإسلام، ولا يكفي أن يقتصر المسلم على نفسه، فإذا كان لا يتمكن من ذلك وجبت عليه الهجرة، وهي الانتقال من بلد الشرك إلى بلاد الإسلام فراراً بدينه؛ كما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وتخلف أناس في مكة وهم مسلمون، تركوا الهجرة وبقوا في مكة تحت ولاية وسلطة الكفار، فلما حصلت غزوة بدر - وهي أول غزوة في الإسلام - خرج المشركون بهؤلاء المسلمين إلى بدر، فأجبروهم على الخروج، ولا نقول: إن هذا من باب الإكراه؛ لأنهم هم السبب لماذا جلسوا حتى تمكن المشركون من إجبارهم، وكان الواجب عليهم أن يهاجروا مع إخوانهم، أما إنهم بقوا حتى تسلط المشركون عليهم وخرجوا بهم قهراً، فهم السبب في هذا، فقُتل هؤلاء المسلمون في بدر، وتأسف الصحابة على قتل إخوانهم لما علموا بذلك، فأنزل الله هذه الآيات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكة الموت، ومعنى ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ تقبض أرواحهم؛ لأن الإنسان إذا حانت وفاته وانتهى أجله نزلت ملائكة من السماء لقبض روحه من جسده، ومعهم رئيسهم ملك الموت، وهم أعوان له؛ لأن الله - جل وعلا - قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، فتارة أضاف التوفي إلى ملك الموت، وتارة أضافه إلى الملائكة، والجمع

بين الأدلة أن ملك الموت هو رئيس هؤلاء الملائكة، فهم يجمعون روحه من جسده ومن عروقه ومن سائر جسمه فإذا اجتمعت في الغرغرة تناولها ملك الموت، فهم أعوان له.

قال تعالى: ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ظلم النفس هو بالمعاصي، ومن أعظم المعاصي ترك الهجرة، فمن ترك الهجرة وهو يقدر عليها فقد ظلم نفسه، يعني: وضعها في غير موضعها؛ لأن **الظلم:** هو وضع الشيء في غير موضعه، فمن وضع نفسه مع الكفار كان ظالماً لها لأن الواجب أن يضعها مع المسلمين.

قالت لهم الملائكة: ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ مع أي جماعة أنتم؟ توبخهم الملائكة على كونهم مع الكفار، أجابوا فقالوا: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أي: إن الكفار أجبرونا وخرجوا بنا، فالملائكة لم تقبل هذا العذر ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ أي الملائكة ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ هل ضاقت الأرض ولم تجدوا أرضاً تهاجرون إليها وتخرجوا من قبضة الكفار، والمسلمون قريبون منكم في المدينة؟ فليس لكم عذر في وجودكم مع الكفار، بل أنتم الذين فرطتم، وأنتم الذين مكنتم الكفار منكم ومن السيطرة عليكم.

فهذا من آفات بقاء المسلم مع الكفار وتحت سلطتهم، أنهم يوقعونه في مثل هذا الموقف، إذا نزلت به الملائكة تقبض روحه وهو مع الكفار، وكان يقدر على الهجرة وتركها فإن كل من ترك الهجرة وهو يقدر عليها وهو لا يقدر على إظهار دينه فإنه يكون مثل هؤلاء، فهؤلاء إنما هم سبب النزول، والحكم ليس مقصوراً عليهم بل هو شامل لكل مسلم يقيم بين أظهر المشركين وهو يقدر على الهجرة، لكن بقي طمعاً في الدنيا، أو طمعاً في وظائف، أوفي مخصصات يأخذها من الكفار، أو طمعاً في زهرة الدنيا وأن بلاد الكفار باردة ونظيفة ومزدهرة، وبلاد المسلمين قاحلة.

والله ـ جل وعلا ـ يبتلي العباد، فلا تبق أيها المسلم مع الكفار لطمع دنيوي إما مال وإما غرض نفس وإما غير ذلك، والدين أعلى من كل شيء، دينك هو رأس مالك إذا فرَّطت فيه وضيعته خسرت الدنيا والآخرة، والصحابة هاجروا ولم يكن معهم شيء، تركوا أوطانهم، وبيوتهم، وأولادهم، وهاجروا في سبيل الله ـ عز وجل ـ آثروا الدين على الدنيا، وصبروا على ما نالهم من المشقة في غير وطنهم، وفي غير بلدهم، وهم فقراء ليس معهم شيء، لكن معهم دينهم، وإذا كان معهم دينهم فما فات عليهم شيء أبداً، أما إذا فات الدين فلو كانت الدنيا كلها عندك فإنها لا تفيدك شيئاً.

﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ هذا توبيخ، أي: مع أي جماعة أنتم؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هم اعترفوا أنهم مع الكفار، لكن قالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وكان مقتضى الجواب أن يقولوا: كنا مع الكفار؛ لأنهم سألوهم ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، ولم يقولوا لهم: ما إيمانكم هل أنتم مطمئنون بالإيمان، هل قلوبكم ثابتة على الإيمان؟ ما سألوهم عن هذا، سألوهم عن وجودهم مع أي فريق ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ فأتوا بالعذر قبل أن يُسألوا عن العذر فالملائكة ردت عليهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ فما أجابوا عن هذا؛ لأنهم ليس لهم عذر، ولو كان لهم عذر لأتوا به، لِمَ بقيتم مستضعفين في الأرض؟ لماذا لم تخرجوا مع إخوانكم حتى تكونوا أعزة؟ فأنتم السبب في كونكم مستضعفين ببقائكم بين الكفار ﴿أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ يعترفون أن أرض الله واسعة، وأنهم تركوا الهجرة من غير عذر شرعي.

ثم إن الله ـ جل وعلا ـ بيَّن حكمهم فقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، مأواهم أي: مصيرهم جهنم وهي النار ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وهذا من باب الوعيد ولا يدل

على أنهم كفار، لكن هذا من آيات الوعيد، فمن ترك الهجرة وهو يقدر عليها فإنه معرض للوعيد، وليس معناه أنه يكفر.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثنى المستضعفين من الرجال والنساء الذين تركوا الهجرة لعذر صحيح ليس لهم معه حيلة، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ فهؤلاء لاتكون مأواهم جهنم نظراً لعذرهم.

والشاهد من الآية: أن من بقي مع الكفار من غير عذر، وخرجوا به يكثر سوادهم، ويُقاتل المسلمين معهم ويساعدهم على المسلمين، أنه بهذا ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وقد يصل إلى حد الكفر؛ لأن مظاهرة المشركين على المسلمين من نواقض الإسلام، لكن هؤلاء ما ظاهروا المشركين باختيارهم، وإنما المشركون قهروهم وخرجوا بهم ولم يكن لهم عذر في بقائهم معهم؛ لأنهم السبب في ترك الهجرة، وهم السبب في تسلط المشركين عليهم، فلم يعذرهم الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم تركوا الهجرة وهم يستطيعونها، فتوعدهم الله بهذا الوعيد، فدل على أن من أقام بين أظهر المشركين، وكثّر سوادهم، وعمل أعمالهم وشاركهم، أن عليه خطراً عظيماً في دينه: إما بالردة، وإما بالوعيد الشديد عليه.

قوله: (فاعتذروا عن كونهم ليسوا في فريق المسلمين: بالاستضعاف) وهم السبب في الاستضعاف، وما كانوا مستضعفين من غير سبب منهم.

قوله: (فلم تعذرهم الملائكة)؛ لأنهم السبب في استضعافهم ببقائهم مع الكفار، وهم يقدرون على الهجرة، والهجرة باقية إلى أن تقوم الساعة؛ كما قال ﷺ: **«لا**

تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها»[١]، فالهجرة باقية إلى أن تقوم الساعة، وأما قوله ﷺ: **«لا هجرة بعد الفتح»**[٢] فهذا في الهجرة من مكة، أي: لا هجرة من مكة إلى المدينة؛ لأنها بعد الفتح صارت دار إسلام، فمن أراد أن يبقى فيها بعد الفتح فليبق.

قوله: **(وقالوا لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾)** ما أجابوا عن هذا؛ لأنهم يعترفون بأنهم تركوا أرض الله الواسعة ولم يهاجروا، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، يجد فيها سعة لم يضيق الله ـ جل وعلا ـ عليه بحيث يبقى مع الكفار، بل الأرض واسعة.

قوله: (ولا يشك عاقل: أن أهل البلدان الذين خرجوا عن المسلمين) هذا تعليق من الشيخ ـ رحمه الله ـ على الواقعة التي حصلت في وقته، وهي أشد من حالة هؤلاء المذكورين في الآية؛ لأن هؤلاء بقوا في مكة مع الكفار، والذين في وقته هم الذين أعانوا الأعداء وجلبوهم إلى بلاد المسلمين، حملوهم على دوابهم ودلوهم على الطريق وبينوا لهم أسرار المسلمين حتى تمكنوا من المسلمين، فأي حال هذه؟ هذه أشد

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى (٢١٧/٥)، وأحمد في المسند (٩٩/٤)، والدارمي في سننه (٢٥١٣)، وأبو يعلى في مسنده (٣٥٩/١٣)، والطبراني في الكبير (٨٩٥، ٩٠٧) من حديث معاوية ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وجاء من حديث عائشة، وابن مسعود ، وابن عمر، وأبي سعيد، وجابر رضي الله عنهم.

من حالة أولئك الذين قتلوا في بدر مع الكفار؛ لأن هؤلاء ما كانوا مع الكفار، كانوا مع المسلمين، وفي بلاد المسلمين، ويظهرون التوحيد، فلما جاء العدو انضموا إليه، وصار يساعدونه ويحملون ذخائره وأمتعته ويدلونه على الطريق، ويعلمونه بأسرار المسلمين، فهذا أشد من حالة أولئك الذين ذكرهم الله في هذه الآية.

قوله: (صاروا مع المشركين وفي فريقهم وجماعتهم) لما حصلت النكبة على أهل الإسلام في هذه البلاد ـ في وقت الشيخ رحمه الله ـ انضم إلى العدو كثير ممن كانوا يصلون مع المسلمين ويجاهدون معهم، فلما جاء العدو انكشف أمرهم، فهل يشك أحد في حكم هؤلاء والعياذ بالله؟! والمراد بـ **(المشركين)** هنا القبوريون الذين يبنون القباب على القبور، ويطوفون بها، وينذرون لها، ويذبحون لها، ويستغيثون بها وجاءوا يقاتلون المسلمين، هؤلاء مثل المشركين الأولين سواء، وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام، فالإسلام لا يصح مع الشرك وعبادة غير الله عز وجل.

قوله: (هذا مع أن الآية نزلت: في أناس من أهل مكة أسلموا واحتبسوا عن الهجرة، فلما خرج المشركون إلى بدر أكرهوهم على الخروج معهم، فخرجوا خائفين) فهؤلاء الذين يعنيهم الشيخ أشد حالاً من أولئك الذين خرجوا مع المشركين يوم بدر مكرهين، مع أن الله توعدهم، والملائكة توبخهم على صنيعهم.

قوله: (فخلعوا ربقته من أعناقهم) لما جاء العدو خلعوا ربقة الإسلام والنصرة للمسلمين وصاروا مع العدو بكل جهة، حتى إنهم يقاتلون معه.

قوله: (وأظهروا لأهل الشرك الموافقة على دينهم) حيث قالوا: إن عبادة القبور ليست شركاً، وإنما هي توسل مشروع.

يا سبحان الله !! كيف تكون توسلاً مشروعاً وهي مثل عبادة اللات والعزى ليس بينهما فرق؟ وقوم نوح إنما وقع فيهم الشرك لما غلوا في الصالحين والأموات وتوسلوا بهم، وهؤلاء غلوا في الأموات ويسمونهم الأولياء، فما الفرق بين هؤلاء وهؤلاء هذه مغالطة، يقولون هذا توسل وهو (شرك)، والشرك شرك ولو سمي بغير اسمه، فهذا لا يزيل عنه حكم الشرك، فالأمور بالحقائق لا بالأسماء، وتسميته توسلاً لا يخرجه عن الشرك؛ لأن الذين من قبل قالوا: إنه توسل.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، هم اتخذوهم وسائط ووسيلة ولم يعذرهم الله عز وجل، بل حكم عليهم بالكفر، والرسول ﷺ قاتل الذين يعبدون الأشجار والأحجار مع أنهم يقولون: إنها وسيلة تقربنا إلى الله، وما نفعهم تدليس الاسم، فالشرك شرك ولو سمي بغير اسمه.

قوله: (فخلعوا ربقته من أعناقهم) خلعوا ربقة الإسلام، وأقل شيء أنهم خلعوا طاعة ولي الأمر، والنبي ﷺ يقول: **«من فارق الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»**[1]، فهم فارقوا إمام المسلمين وجماعة المسلمين وانضموا إلى العدو، فهم خرجوا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد في المسند (٤/ ١٣٠)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٢٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٩٥)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٧، ٣٤٣٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٨٢)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٥٧) من حديث الحارث الأشعري ﷺ.

على ولي الأمر وشقوا عصا الطاعة، وفي الحديث أن من فعل هذا **«فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»**.

قوله: (ودخلوا في طاعتهم، وآووهم ونصروهم) أي دخلوا في طاعة العدو وآووهم في بيوتهم، ونصروهم على المسلمين، وحملوا أسلحتهم وقواتهم على دوابهم، وجاءوا بهم إلى المسلمين.

قوله: (وخذلوا أهل التوحيد، واتبعوا غير سبيلهم، وخطئوهم، وظهر فيهم: سبهم وشتمهم، وعيبهم، والاستهزاء بهم) ظهر ما في صدورهم، وقد كانوا من قبل منافقين يظهرون محبة المؤمنين، فلما جاءت المحنة والفتنة سنحت لهم الفرصة فأظهروا ما عندهم من النفاق، وصاروا يسبون المسلمين ويخطئون المسلمين ويمدحون المشركين، ويدعون أن عباد القبور والأضرحة مسلمون.

ولو فرضنا أن هؤلاء مسلمون وهم قد اعتدوا على المسلمين، فهم باعتدائهم هذا يسمون بغاة، والله - جل وعلا - يقول: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ [الحجرات: ٩]، فكان الواجب عليهم أن يقاتلوا مع ولي الأمر هؤلاء البغاة، هذا إذا تنزلنا معهم وقلنا: هؤلاء بغاة، فالله أمرنا أن نقاتل البغاة، وهم صاروا مع البغاة.

قوله: (وتسفيه رأيهم - في ثباتهم على التوحيد والصبر عليه، وعلى الجهاد فيه) وليس هذا بغريب، فقد حصل من المنافقين أسلافهم مثل ذلك لما جاءت الأحزاب إلى المدينة على عهد الرسول ﷺ، وحاصروا المدينة وخانت اليهود وانضمت إلى المشركين، فقال رجل من المنافقين: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، إن هذا إلا الغرور. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ

وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢][(١)]، فهؤلاء الذين في وقت الشيخ مثل هؤلاء لما جاء العدو انضموا إليهم وقالوا: هؤلاء المسلمون الموحدون ليسوا على شيء، وأنتم الذين على الحق وأنتم.. وأنتم..

قوله: (وعاونوهم على أهل التوحيد طوعاً لا كرهاً واختياراً لا اضطراراً) مع أن الذين قُتلوا في بدر أُكرهوا على الخروج مع المشركين، وهؤلاء أطاعوا واختاروا أن يكونوا مع الأعداء، بل هم الذين شجعوا الأعداء على قتل المسلمين وغزو بلاد المسلمين، ولو تنزلنا وقلنا هؤلاء بغاة وليسوا كفاراً، فهم ساعدوا البغاة، والله ـ جل وعلا ـ أمرنا أن نقاتل البغاة.

قوله: (فهؤلاء أولى بالكفر والنار من الذين تركوا الهجرة شحاً بالوطن) لأن المسلمين الذين قُتلوا في بدر لم يسبوا المسلمين، ولا تكلموا في المسلمين، وهؤلاء يسبون المسلمين وينتقدونهم، ويمدحون أعداءهم، فهم زادوا على هؤلاء.

قوله: (فإن قال قائل: هلا كان الإكراه عذراً ـ للذين قتلوا يوم بدر ـ على الخروج؟) هذا سؤال وارد بلا شك، كيف أنهم صار عليهم هذا الوعيد وهم خرجوا مكرهين؟ أجاب الشيخ بقوله: **(لا يكون عذراً؛ لأنهم في أول الأمر لم يكونوا معذورين؛ إذا أقاموا مع الكفار)** فهم تسببوا فيما وقعوا فيه، ولو أنهم هاجروا مع إخوانهم لسلموا مما وقعوا فيه، قال الشيخ رحمه الله: **(فلا يعذرون بعد ذلك بالإكراه؛ لأنهم السبب في ذلك، حيث أقاموا معهم وتركوا الهجرة)** هذا هو الجواب السديد عن هذا الإشكال.

---

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق (١١٣/٣، ١١٤)، وتفسير الطبري (١٣١/٢١)، وفتح الباري (٤٠٠/٧)، والدر المنثور (٥٧٥/٦).

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]

فذكر تبارك وتعالى، أنه نزل على المؤمنين في الكتاب: أنهم إذا سمعوا آيات الله يكفر بها، ويستهزأ بها فلا يقعدوا معهم، حتى يخوضوا في حديث غيره. وأن من جلس مع الكافرين بآيات الله، المستهزئين بها في حال كفرهم واستهزائهم: فهو مثلهم. ولم يفرق بين الخائف وغيره. إلا المكره.

هذا وهم في بلد واحد، في أول الإسلام. فكيف بمن كان في سعة الإسلام وعزة بلاده، فدعا الكافرين بآيات الله المستهزئين بها إلى بلاده، واتخذهم أولياء وأصحاباً وجلساء، وسمع كفرهم واستهزاءهم واقرهم، وطرد أهل التوحيد وأبعدهم؟ !!.

الشرح:

الله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الكتاب أي القرآن والسنة، وذلك كما في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، قد نزل عليكم الله ـ جل وعلا ـ ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ من قبل الكفار والمنافقين ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ لا تقعدوا في مجلس يُستهزأ فيه بالإسلام والمسلمين، ويُستهزأ فيه بالقرآن، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ ولو أنكم في الأول مسلمون فإنكم إذا جلستم معهم على هذه الحالة تكونون مثلهم والعياذ بالله؛

لأنكم لم تنكروا المنكر، بل سكتم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فتكونون مثلهم، يجمعكم الله معهم يوم القيامة في النار، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كما اجتمعتم معهم في الدنيا.

فهذا فيه تحريم الجلوس في المجالس التي يُسب فيها الله أو رسوله أو القرآن والسنة أو المسلمون، ومن ذلك بقاء المسلم مع المشركين، فإن المشركين يسبون الله، ويسبون الرسول، ويسبون المسلمين، فإذا بقي معهم وأقام معهم واستوطن معهم فإنه مخالف لهذه الآية الكريمة، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، فهذا فيه وجوب هجر مجالس السوء وبلاد السوء، ولاسيما مجالس الكفر والإلحاد والزندقة والتشكيك في الإسلام.

وما أكثر المجالس اليوم التي تستهزئ بالمسلمين وتتنقص الإسلام وتمدح الكفار، ما أكثرها في بلادنا فضلاً عن بلاد الكفار، فالواجب على المسلم أن يقاطع هذه المجالس، وأن يبتعد عنها فإن جلس فيها وسكت فإنه يكون إذاً مثلهم.

فالذين قال الله - جل وعلا - فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦، ٦٥]، إنما الذي تكلم واحد، هو الذي قال: **«ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء»**[١]، ولكن البقية سكتوا ولم ينكروا عليه، **فصار القول منسوباً إليهم** جميعاً، وصار الاستهزاء منسوباً إليهم جميعاً؛ **لأنهم لم ينكروا.**

---

(١) سبق تخريجه.

ولما سمع عوف بن مالك ﷺ الصحابي الشاب الذي كان معهم هذا السب، قال: للمتكلم: «كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ»، ثم ذهب ليخبر الرسول ﷺ، لما وصل إلى الرسول وجد أن الوحي قد نزل إليه في شأن هؤلاء، فدل هذا على أن الإنسان لا يجوز له أن يحضر مجالس الشر، مجالس الاستهزاء بالدين والسخرية من الدين أو من المسلمين، بل عليه أن يبتعد عن مجالس المبتدعة، ومجالس الدعوة إلى الشرك وسب التوحيد، التي يقولون فيها: إن التوحيد هو دين الخوارج، وعبادة القبور هي دين المسلمين وهي من التوسل ومن محبة الصالحين، يقولون هذا في مجالسهم، فالذي يحضر معهم ولا ينكر يكون مثلهم، ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾.

فهذه الآية فيها دليل على تحريم موالاة المشركين بالجلوس معهم، وهم يتكلمون في سب الإسلام والمسلمين، فإذا جلست معهم فهذا من الموالاة، وهذه مسألة دقيقة تحتاج إلى فهم، فكثير من الناس يقرأ الآية ولا يفكر فيها، ولا يفهم منها أن الجلوس مع هؤلاء من الموالاة؛ ذلك لأنه لا يتدبر القرآن.

قوله: (فذكر تبارك وتعالى، أنه نزل على المؤمنين في الكتاب: أنهم إذا سمعوا آيات الله يكفر بها، ويستهزأ بها) ومن الكفر بها أن تُفسر بغير تفسيرها، وأن تؤول بغير تأويلها، هذا من الاستهزاء بآيات الله عز وجل، أو أن يُقال: إن هذه آيات نزلت في عصر مضى، أما نحن الآن في عصر الرقي والتقدم والحضارة، وأولئك بدائيون، أو يقولون: عبادة الأصنام شرك ساذج، وإنما الشرك الشرك السياسي.

بل هذا شرك عظيم والعياذ بالله، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] فهوعظيم وليس ساذجاً.

قوله: (فلا يقعدوا معهم، حتى يخوضوا في حديث غيره)، وإني لأخشى أن يكون الذي يفتح القنوات الفضائية التي تسب الله ورسوله وتسب دين الإسلام ويستمع إليها أنه مثل من هو حاضر لهذه المجالس، فليتنبه لهذا.

دل هذا على أن الكفار إذا كانوا لا يتكلمون في المسلمين ولا يسبونهم فلا بأس من الجلوس معهم في عمل أو في وظيفة أو في شغل أو في بيع وشراء، أو الأكل معهم، وما شابه ذلك، والله ـ جل وعلا ـ لم يحرم الجلوس معهم مطلقاً، نعم حرم الإقامة في بلاد الكفار، أما الجلوس العارض والمجلس العارض هذا لا يحرم إلا إذا كان فيه مسبة للإسلام.

قوله: (وأن من جلس مع الكافرين بآيات الله، المستهزئين بها في حال كفرهم واستهزائهم: فهو مثلهم)؛ لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ يعني إذا خاضوا في غير سب الإسلام فلا مانع من الجلوس معهم، والقعود معهم.

قوله: (ولم يفرق بين الخائف وغيره، إلا المكره) فالخوف ليس بعذر؛ لأنه يمكنه الابتعاد عنهم، **(إلا المكره)** أما لو أسروه، أو أغلقوا عليه الباب، أو منعوه من الخروج منعاً باتاً، فهذا معذور لأنه مكره، ولكن بشرط أن يبغض ما يقولون، وأن يكره ما يقولون ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

قوله: (هذا وهم في بلد واحد)؛ لأن سورة الأنعام مكية، نزلت على الرسول ﷺ في مكة، والمسلمون والكفار في بلد واحد هو مكة، وحرَّم الله ـ جل وعلا ـ الجلوس مع الذين يستهزئون بالدين والقرآن، مع أنهم كما يُسمون الآن مواطنين، وحتى لو كانوا مواطنين هل نتركهم يسبون ديننا لأنهم مواطنون؟ الجواب: لا نتركهم يسبون

ديننا، إما أن نمنعهم وإذا لم نستطع فلا نجلس معهم بل نقاطع مجالسهم ونبتعد عنها فراراً بديننا.

وهذا كان في مكة قبل الهجرة، وأما بعد الهجرة فقد أمر الله ـ جل وعلا ـ بجهادهم، فلا يكفي أن تقوم وتتركهم، بل لابد من جهادهم، لكن هذا بعد الهجرة، والآية هذه نزلت قبل الهجرة، والمسلمون في مكة بين الكفار.

قوله: (في أول الإسلام) يعني في مكة المكرمة.

قوله: (فكيف بمن كان في سعة الإسلام وعزة بلاده)، كيف بمن حصل منه هذا وانظم إلى الأعداء وهو في بلد المسلمين ومع المسلمين ثم انحاز إلى العدو كما حصل من بعض أهل نجد لما غزا العدو بلادهم.

قوله: (في سعة الإسلام وعزة بلاده)، يعني: كحالهم في الدرعية.

قوله: (فدعا الكافرين بآيات الله المستهزئين بها إلى بلاده)، هذا تعليق من الشيخ ومقارنة لحال الذين أتوا بالجيوش إلى بلاد الإسلام، وأعانوهم، وأكلوا معهم، وشربوا معهم، وفرحوا بمجيئهم؛ كحال السابقين.

قوله: (واتخذهم أولياء وأصحاباً وجلساء) هؤلاء الأعداء ما جاءوا إلا بدعوة من أعداء الإسلام الموجودين في هذه البلاد، دعوهم وبينوا لهم أنهم سوف يساعدونهم ويمشون معهم، فهم ما أتوا إلا لما توثقوا من أن هؤلاء سيساعدونهم ويدلونهم ويخبرونهم.

قوله: (وسمع كفرهم واستهزاءهم وأقرهم) وهو مع جيشهم يأكل ويشرب ويضحك، وهم يسبون المسلمين والإسلام، ويقاتلون أهل التوحيد، ولا يغار، فأين الإيمان الذي يدعيه من قبل؟

قوله: (وطرد أهل التوحيد وأبعدهم؟!!) يشير إلى ما عمله إبراهيم باشا قائد الحملة على أهل التوحيد حينما حمل العلماء والأمراء إلى مصر ليقضي على دعوة التوحيد، ولكن ـ الحمد لله ـ دارت الدائرة عليه، وعاد التوحيد إلى البلاد وعاد المسلمون، وأخذ الله هؤلاء أعانوهم، وصاروا بين الناس ـ والعياذ بالله ـ أذل من الذليل.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فنهى سبحانه المؤمنين: عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وأخبر: أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم، وهكذا حكم من تولى الكفار من المجوس وعباد الأوثان، فهو منهم.

فإن جادل مجادل في أن عبادة القباب، ودعاء الأموات مع الله ليس بشرك، وأن أهلها ليسوا بمشركين. بان أمره، واتضح عناده وكفره.

ولم يفرق تبارك وتعالى بين الخائف وغيره، بل أخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفاً من الدوائر، وهكذا حال هؤلاء المرتدين خافوا من الدوائر، وزال ما في قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد، فبادروا وسارعوا إلى أهل الشرك، خوفاً أن تصيبهم دائرة، قال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ **[المائدة: ٥٢].**

الشرح:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ اليهود والنصارى وهم أهل كتاب لا تتخذوهم أولياء؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، ومن كفر بنبي واحد فهو كافر بكل الأنبياء، فهم كفروا بمحمد، واليهود كفروا بعيسى وجحدوا رسالته وبمحمد ﷺ،

والنصارى غلوا في عيسى وجعلوه إلهاً، وجعلوه ابن الله أو ثالث ثلاثة، أو قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم.

هذا دين اليهود والنصارى، فاليهود كفروا بعيسى وكفروا بمحمد ﷺ، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ وغلوا في عيسى حتى جعلوه إلهاً يعبد من دون الله، ويسمونه الرب والمخلص.. إلى آخر ما يقولون في إذاعاتهم الآن، فإذا سمعت إذاعتهم التي يسمونها «صوت الإنجيل» أو «حول العالم»، تجد هذيانهم الذي ذكره الله في القرآن يكررونه الآن، ولم يتخلوا عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وأن المسيح ابن الله، تجد هذا يرددونه الآن ما أقلعوا عنه، فإذا كان هذا في اليهود والنصارى قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ لا تتخذوهم أولياء، مع أنهم أهل كتاب، فكيف بالمجوس، وكيف بعبدة الأوثان والمشركين، وكيف بعباد القبور؟ فهؤلاء أشد.

قوله: (فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء)، أولياء يعني بالمحبة والنصرة.

قوله: (وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين) أي: أحبهم بقلبه أو ناصرهم على المسلمين **(فهو منهم)** يعني: كافر مثلهم، ويصير يهودياً أو نصرانياً، وهو يدعي أنه مسلم؛ لأن من نواقض الإسلام موالاة الكفار ومظاهرة الكفار على المسلمين.

قوله: (وهكذا حكم من تولى الكفار من المجوس وعباد الأوثان، فهو منهم) يعني: الذي يوالي المجوس يصير مجوسياً، والذي يُوالي عباد الأوثان يصير وثنياً مثلهم.

قوله: (فإن جادل مجادل: في أن عبادة القباب، ودعاء الأموات مع الله ليس بشرك، وأن أهلها ليسوا بمشركين) كما يقولون الآن: هذا ليس شركاً، بل الشرك هو عبادة الأصنام. فنقول لهم: عبادة الأصنام نوع من أنواع الشرك، وهناك أنواع للشرك كثيرة، منها: عبادة الأولياء والصالحين، وعبادة الشياطين والجن والملائكة، وعبادة الأنبياء، وعبادة الأشجار والحجار، فالشرك يتنوع وليس هو عبادة الأصنام فقط.

فإذا قال لك قائل: إن عبادة القبور ليست بشرك. تقول له: فسر لي الشرك ما هو؟ فإن قال: الشرك عبادة الأصنام. تقول: الرسول بُعث إلى قوم متفرقين في عباداتهم: منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الحجر والشجر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، والرسول قاتلهم ولم يفرق بين عابد الصنم وعابد القبر، ولا عابد الصنم وعابد الشجر. فقولك: إن الشرك عبادة الأصنام فقط. هذا غلط يكذبه القرآن.

فإن قال: هؤلاء يعتقدون في هذه المعبودات أنها تدبر مع الله، وتخلق مع الله، وأنا ما اعتقد فيها ذلك، أنا أعتقد أنها وسائط بيني وبين الله وشفعاء.

تقول له: هذا كلام المشركين الأوائل قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ما الفرق بينك وبينهم؟ ليس بينكما فرق.

والحاصل: أن الذي يقول: هذا ليس بشرك. تقول له: فسر لي الشرك ما هو؟ فإذا فسره بالتفسير الصحيح تبين كذبه، وإن فسره بغير التفسير الصحيح فهو مبطل؛ كما وصفه المؤلف هنا بقوله: **(بان أمره واتضح عناده وكفره).**

قوله: (ولم يفرق تبارك وتعالى بين الخائف وغيره) لم يفرق في هذا بين الذي يظهر الموالاة للكفار ويساعدهم وهو خائف منهم أو غير خائف، إنما عذر المكره فقط، أما الخوف فدائماً الكفار يهددون المسلمين، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾، وذلك بعد أن عاد المسلمون من أحد وما زال الدم يسيل من جروحهم، أرسلوا يتهددونهم بأنهم يجمعون الجموع وسيرجعون، والمسلمون ما تضعضعوا عن إيمانهم، بل قالوا: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾، فلما أظهروا قوة إيمانهم وثباتهم رد الله المشركين وأثناهم عنهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ (١٧٣) فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فالخوف من الكافر ليس بعذر، إلا إذا وصل إلى حد الإكراه.

قوله: (بل أخبر تعالى: أن الذين في قلوبهم مرض يفعلون ذلك خوفاً من الدوائر) وهذا أيضاً رد ثان من الآية وهو قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وهم المنافقون ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ يعني في اليهود والنصارى، ويتقربون إليهم بالمودة، ما السبب؟ ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ نخشى أن يتغلب الكفار بعد ذلك، فتصير لنا يد عندهم فلا يضروننا، فيسيئون الظن بالله عز وجل، ويخافون الكفار ولا يخافون من الله عز وجل، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ

مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقد جاء الله بالفتح ونصر المسلمين وخذل الكافرين، و الذين قالوا: ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ باءوا بالخزي والخسران المبين، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٣]، وأصبح المؤمنون يتعجبون من حال هؤلاء.

قوله: (وهكذا حال هؤلاء المرتدين) يعني الذين ناصروا الجيش الغاشم على المسلمين هذا تعليق بالحاصل في وقته ؛ الذي حصل في وقته هو نفس ما حصل من المنافقين في المدينة على عهد النبي ﷺ.

قوله: (خافوا من الدوائر، وزال ما في قلوبهم من الإيمان بوعد الله الصادق بالنصر لأهل التوحيد) مثل المنافقين من قبل تماماً وسنة الله لاتتبدل. ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ **[الأحزاب: ٦٢].**

الـــدليل التاســـع: قولـــه تعـــالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ **[المائدة: ٨٠]، فذكر الله تعالى أن موالاة الكفار موجبة لسخط الله، والخلود في العذاب بمجردها، وإن كان الإنسان خائفاً، إلاّ من أُكره بشرطه، فكيف إذا اجتمع ذلك مع الكفر الصريح، وهو معاداة التوحيد وأهله، والمعاونة على زوال دعوة الله بالإخلاص، وعلى تثبيت دعوة غيره؟!**

الشرح:

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مع أن اليهود أهل كتاب وأهل دين وأتباع ملة، فإنهم يتولون الكفار الذين لا دين لهم، وهم أعداء للرسل وأعداء للكتب، يتولونهم: يعني يحبونهم بقلوبهم، ويناصرونهم، ويعينونهم، مع أنه كان المفروض أن يتبرؤوا منهم؛ لأنهم أعداء دينهم، وأعداء رسل الله، وأعداء الكتب، فكان الواجب أنهم يتبرؤون منهم، فلا يحبونهم ولا يناصرونهم فيتميزون عنهم، لكنهم بالعكس ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، **والتولي:** هو المحبة والمناصرة وغير ذلك من الميول القلبية والفعلية إلى الكفار.

قال ـ جل وعلا ـ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لبئس: اللام موطئة للقسم، والقسم هنا محذوف؛ كأن التقدير ـ والله أعلم ـ: والله لبئس ما قدمت لهم أنفسهم من موالاة الكفار، فدل على أن من أحب الكفار ووالاهم فقد قدّمت له نفسه

شراً، ما الذي قدمت؟ ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، ذكر سبحانه عقوبتين:

العقوبة الأولى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: غضب عليهم، فهذا فيه أن الله يوصف بأنه يسخط ويغضب كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه يسخط، ويغضب، ويكره الأعمال الكفرية والشركية، ويكره أهلها ويبغضهم ويسخط عليهم، فدل على أن محبتهم توجب غضب الله؛ لأن الواجب على المؤمن أن يُحب ما يُحبه الله، ويُبغض ما يُبغضه الله، فإذا أحب ما يبغضه الله وكره ما يحبه الله فهذا دليل على انحرافه عن الدين.

العقوبة الثانية: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: في النار باقون فيها بقاءً مؤبداً، ولا يبقى في العذاب بقاءً مؤبداً إلاّ الكافر؛ فدلَّ ذلك على أن هذا النوع من الموالاة كفرٌ بالله عز وجل يوجب الخلود في النار.

ثم قال - جل وعلا -: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١] أي: خارجون عن طاعة الله عز وجل، وخارجون عن الإيمان؛ فدلّ على أن موالاة الكفار تنافي الإيمان، وأنها علامةٌ على عدم الإيمان، وأن موالاة الكفار فسق.

قوله: (فذكر الله تعالى أن موالاة الكفار موجبة لسخط الله) هذه العقوبة الأولى، **وقوله: (والخلود في العذاب بمجرّدها)** هذه العقوبة الثانية، (بمجردها) أي مجرد الموالاة.

قوله: (وإن كان الإنسان خائفاً) فلا يجوز له أن يواليهم وإن كان خائفاً منهم، إلاّ إذا أُكره فإنه يداريهم مداراة بما يدفع عنه الضرر ولايحبهم: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟

مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨] هذا يسمى بالمداراة، وهو دفع الضرر بما لا يخل بالدين لا بمحبتهم في القلب وإنما بإظهار شيء يدفع عنه الضرر، فيُظهر موافقتهم في أمر من الأمور التي لا تجرح الدين والعقيدة.

أما مجرد الخوف فإنه لا يبيح الموالاة، بل الإنسان يصبر على دينه ولا يوالي الكفار ما لم يصل إلى حد الضرورة؛ فيدفع الضرورة بما ليس موالاة ولاهو من المساومة على الدين أو التنازل عنه، بل بإظهار الموافقة في بعض الأمور التي لا تمس الدين.

قوله: (إلاّ من أكره بشرطه)، وهو كون قلبه مطمئناً بالإيمان لقوله: ﴿ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦] وهذا الذي يُسمى بالمداراة، وهو إظهار شيء مما يدفع شرهم عنه مع اطمئنان قلبه بالإيمان، مع عدم تنازله عن شيء من دينه.

قوله: (فإذا اجتمع ذلك مع الكفر الصريح وهو معاداة التوحيد وأهله) إذا انضم إلى محبة الكفار في القلب إعانتهم على المسلمين ومظاهرتهم على المسلمين فهذا ردَّة، وهذا من نواقض الإسلام، إذا انضم بُغض الدين أو بغض شيء من الدين إلى موالاة الكفار فهذا نوع من أنواع الردة عن الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨].

قوله: (والمعاونة على زوال دعوة الله بالإخلاص، وعلى تثبيت دعوة غيره) يشير الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى ما حصل في وقته من أنّ كثيراً من أهل هذه البلاد من بادية وحاضرة انضموا إلى أعداء المسلمين، فلما جاءت الجيوش لمداهمة بلاد المسلمين انضم إليهم الأعراب وكثيرٌ من أهل القرى والبوادي، وساعدوهم، ونقلوهم، وحملوا

أسلحتهم، ودلوهم على الطريق، وهذا بغضٌ للدعوة، وبُغض لهذا الدين، فإذا انضم إلى محبة الكفار كراهة التوحيد، وكراهة دين الإسلام ـ فهذا هو الخطر العظيم، والردّة الصريحة.

وكثيرٌ ممن ينادون اليوم بموافقة الكفار يُبغضون الدين، ويقولون: إنه غلو وتطرف وتشدد. كما يكتبون في الصحف والمجلات أن التمسك بالدين ـ عندهم ـ تطرف وغلو، وأنه يجب اجتثاثه، وتربية الناس على ضده، هذا ما ينادون به الآن، وهذه ردة صريحة والعياذ بالله؛ لأن هذا بغض للدين.

ومنهم من ينادي ويقول: غيّروا المناهج، ولا تذكروا فيها الشرك، ولا تذكروا الكفر، ولا تقولوا: أنهم كفار أو مشركون، بل قولوا: غير مسلمين، ولا تقولوا: هؤلاء منافقون، وغيّروا الخطاب الديني .. كذا يقولون.

وهذا خطرٌ عظيم وتحولٌ والعياذ بالله، فإذا غيرتم مناهجكم حتى لا تُغضب الكفار، فهل تغيرون القرآن؟! مناهجنا هي ما في القرآن والسنة، فإنّ غيرنا ـ ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ـ المقررات فلا نقدر أن نغير الكتاب والسنة؛ لأن هذا شيء ثابت ثبوت الجبال الرواسي ولا يمكن مقاومته.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] فإذا تخلينا عن هذا يأتي الله بقومٍ غيرنا، والله سبحانه لا يُضيع دينه، بل يقيض له أنصاراً وأعواناً، لكن الشأن بنا نحن ألاّ نضيع أنفسنا، والواجب أن نتمسك بديننا وبعقيدتنا، نعم لا نتعدى على الكفار المعاهدين والمستأمنين والذّميين، بل نفي لهم بالعهد، ولا نستحل دماءهم ولا أموالهم؛ لأن هذا من الوفاء وليس هذا من الموالاة، وهذا مما أمر به الدين.

فإذا كانوا يقولون: إن هؤلاء الذين فجروا المباني وقتلوا الأبرياء، وفعلوا ما فعلوا، بسبب الدين.

نقول: كذبتم، ليس هذا بسبب الدين، وإنما هو بسبب الجهل بالدين؛ لأن الدين لا يأمر بهذا، بل الدين ينهى عن هذا، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: أعلن لهم أولاً أنك ستنهي العهد الذي بينك وبينهم، ولا تفاجئهم بنقض العهد، وقال: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ١، ٢]، أعطاهم مهلة.

فما يفعله هؤلاء هو غدر، والغدر ليس من الدين، ويبرأ منه الإسلام، لكن هؤلاء إما أنهم جُهال لا يعرفون الدين، وإما أنهم يبغضون الدين، فاستغلوا الفرصة وشنوها حرباً ضد الإسلام وضد الدين.

وديننا لا يمنع التعامل مع غير المسلمين، بل أباح الله تعالى البيع والشراء والاستئجار، واتخاذهم عمالاً للأشياء التي لا يُحسنها إلاّ هم، والرسول ﷺ قد استأجر دليلاً من المشركين يدله على الطريق في الهجرة(١)، فلا مانع من استئجارهم للأمور التي

---

(١) أخرج ابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة» (١/١٤٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل ماهراً خريتاً، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبح ثالث»، قال ابن بشكوال: «الرجل الديلمي هو عبد الله بن أرقط ويقال أريقط».
انظر: الطبقات الكبرى (١/٢٢٩)، وتاريخ الطبري (١/٥٦٩)، والبداية والنهاية (٣/١٧٨)، والكامل في التاريخ (٢/٥)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/٥).

لا يعرفها إلا هم، ولا مانع من استيراد البضائع وعقد الصفقات معهم، ولا مانع من التعامل معهم في مثل هذه الأمور.

وأيضاً يُشرع لنا أن نُحسن إلى من أحسن إلينا، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨] هذا هو ديننا ليس دين الغدر ولا الخيانة وسفك الدماء والتخريب، وكل هذا يبرأ منه الإسلام.

فيجب على المسلم أن يتنبه لهذه الأمور وهذه المكايد، فهم حملوا هذه التصرفات الظالمة على دين الإسلام وعلى المسلمين، والدين منها بريء والمسلمون أبرياء منها، وهذه تصرفات أُناس تغيرت أمزجتهم، وخربت ضمائرهم، وحُشيت أدمغتهم بالغلو والتطرف، فهؤلاء لا يُحسبون على الإسلام، وعملهم هذا ليس من الإسلام، بل الإسلام بريءٌ منهم كل البراءة، فديننا دين العدل والوفاء لمن وفى معنا، قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧] يقابل استقامتهم باستقامتنا معهم على العهد وعلى الوفاء.

فيجب ألا يُحسب هؤلاء على الدين؛ لأنهم أصحاب فِكرٍ خاص، وأفعالهم وتصرفاتهم ينكرها الإسلام، فلا يُحمل ما يفعلونه على الدين ويُقال: دين الإسلام دين إرهاب ودين سفك دماء ودين تخريب. كما يقوله أعداء الإسلام، ويساعدهم في ذلك بعض المنتسبين إلى الإسلام، ويقولون: هذا فعل المتدينين، وهذا هو الدين، وهذا هو التطرف والغلو، ويقولون: ربوا أولادكم على التساهل والتسامح مع الكفار، والتنازل عن العقيدة.

يقولون هذا الكلام في هذه المسائل العظيمة التي يجب أن تُرد إلى أهل العلم، ولا يتولى الكلام فيها الجهال والمتعالمون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فهذه الأمور العظيمة لا يتكلم فيها إلا أهل العلم وأهل الحل والعقد، ويصدرون فيها ما يناسب، ولا تكون حديث المجالس؛ لأن هذا يزيد الشر شراً، وليست هي من شأن كل واحد أن يتكلم فيها، أو يؤلف فيها؛ لأنها أمور خطيرة جداً.

فقوله هنا: (والمعاونة على زوال دعوة الله بالإخلاص وعلى تثبيت دعوة غيره)، هذا قصد من أعان الجيوش المهاجمة لبلاد التوحيد؛ قصدهم إزالة التوحيد من البلد، ولكن خيب الله ظنهم، فما زالت دعوة التوحيد ـ ولله الحمد ـ في هذه البلاد قائمة، رغم ما حصل من الحروب ومجيء الجيوش الجرارة لتخريب البلاد، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] بقيت دعوة التوحيد لأنها حق والحق يثبُت، وإن فعلوا ما فعلوا من النكال والضرب والقتل والتشريد، وإنما رجع كيدهم عليهم.

الدليل العاشر: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **[المائدة: ٨١] فذكر تعالى أن موالاة الكفار منافية للإيمان بالله والنبي ﷺ وما أُنزل إليه، ثم أخبر أن سبب ذلك كون كثير منهم فاسقون، ولم يفرّق بين من خاف الدائرة وبين من لم يخف؛ وهكذا حال كثير من هؤلاء المرتدين قبل ردتهم كثير منهم فاسقون، فجرّهم ذلك إلى موالاة الكفار، والردّة عن الإسلام، نعوذ بالله من ذلك.**

الشرح:

قوله: (الدليل العاشر: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**)** هذه الآية تابعة للآية السابقة، والشيخ ـ رحمه الله ـ اعتبرها دليلاً مستقلاً.

وهي تدلّ على أنّ اتخاذ الكفار أولياء يتنافى مع الإيمان بالله والنبي ﷺ وما أُنزل إليه وهو القرآن والسنة.

قوله: ﴿فَاسِقُونَ﴾ الفسق المخرج من الملة؛ لأن الفسق فسقان:

الأول: فسقٌ أصغر بارتكاب الكبائر التي دون الشرك، وهذا لا يُخرج من الملة.

الثاني: فسقٌ أكبر، وهو فسق الكفر والشرك؛ كما في قوله تعالى في إبليس: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، أي: خرج عن طاعة الله، وهذا فسق أكبر.

قوله: (ثم أخبر أن سبب ذلك كون كثير منهم فاسقون)؛ لأن الذي جرّهم إلى هذا فسقهم، والفسق يجر إلى الكفر، والشر يجر بعضه إلى بعض، فقد كان إيمانهم

مهزوزاً وناقصاً وضعيفاً، وكان فيهم شيء من النفاق، فلما جاءت المحنة انقلبوا على أعقابهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾، يعني: طرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١]، فالفتن تكشف الناس، ينكشف بها المؤمن الصادق من المنافق من ضعيف الإيمان، ويتميز بها الصابر من الذي لايصبر.

قوله: (ولم يفرّق بين من خاف الدائرة وبين من لم يخف)، فالذين قالوا: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ﴾ [المائدة: ٥٢] خافوا أن ينتصر الكفار على المسلمين فقالوا: نجعل لنا معهم يداً، فنقدم لهم محبة ومودة حتى إذا انتصروا على المسلمين لا يضروننا، فهم يسيئون الظن بالله عز وجل؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، فهم يظنون بالله ظن الجاهلية، ويرون أن الحق سيزول وأن الكفار سيظهرون وينتصرون، وهؤلاء قال الله تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

هذه هي طريقة المنافقين أنهم يتخذون مع الكفار يداً، وهذا ما فعله المنافقون مع اليهود الذين كانوا في المدينة، اتخذوا معهم يداً حتى إذا انتصروا على المسلمين لا يضرونهم؛ لأنهم قد وثّقوا العلاقة معهم، وهذا يدل على أنهم لا يؤمنون بالله، بل يسيئون الظن بالله عز وجل، ويتربصون بالمؤمنين، وينتظرون أنه يزول هذا الدين، فالله

فضحهم وأكذب ظنهم، ونصر المسلمين على اليهود، فأخرجوهم من حصونهم، وطردوهم من المدينة إلى الشام، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، هذا حصل بعد غزوة الخندق مع بني قريظة، ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وهي أرض خيبر التي فتحها المسلمون بعد ذلك.

قوله: (وهكذا حال كثير من هؤلاء المرتدّين، قبل ردّتهم كثير منهم فاسقون) كانوا يتربصون مع العدو لينتصر فيكون لهم معه مقدمات، ويأمنون على أنفسهم، ولكن الله ـ عز وجل ـ عكس الأمر عليهم ونصر المسلمين في هذه البلاد ولله الحمد، فما أن رحلت جيوش العدو عن هذه البلاد إلا وقد عاد للمسلمين عزهم ونصرهم وحكومتهم على يد الإمام تركي بن عبد الله آل سعود رحمه الله، وعادت الدعوة كما كانت، وخاب ظن هؤلاء، وانتكس أمرهم.

قوله: (هؤلاء المرتدين)، يعني: الذين ارتدوا مع الفتنة في بلاد نجد، لما هاجت الفتنة وجاء العدو بجيوشه الجرارة ارتدوا عن الدين، يريدون السلامة بزعمهم، فباعوا دينهم وتصانعوا مع الأعداء حتى يَسْلَمُوا من شرهم، ولكن انعكس الأمر عليهم، وعاد الدين كما كان، وانتصر الإسلام وأهله، ورحل الذين كانوا يعلقون عليهم الآمال وتركوهم، ولم يبق لهم إلا الخيبة والحسرة والندامة في الدنيا والآخرة.

الدليل الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وهذه الآية نزلت لما قال المشركون: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله، فأنزل الله هذه الآية.

فإذا كان من أطاع المشركين في تحليل الميتة مشركاً من غير فرق بين الخائف وغيره إلا المُكره، فكيف بمن أطاعهم في تحليل موالاتهم، والكون معهم ونصرهم، والشهادة أنهم على حق، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم، والخروج عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين؟ فهؤلاء أولى بالكفر والشرك ممن وافقهم على أن الميتة حلال.

الشرح:

قوله: (الدليل الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿... وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾)، ومحل الشاهد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾، فقد كانوا في الجاهلية يأكلون الميتة ولا يشترطون الذكاة، والميتة خبيثة وأكلها حرام؛ لما فيها من التغذية السيئة، والأمراض الخبيثة، فهي خبيثة في الأثر وفي نفسها أيضاً، لذلك حرّمها الله جل وعلا، وقد كانوا في الجاهلية يأكلون الميتة، فلمّا حرّمها الله جادل ناسٌ من المشركين في تحريمها، وكان لهم أصدقاء من المجوس فأسروا إليهم هذه الفكرة الخبيثة أن الله هو الذي ذكى الميتة، وأما المذبوحة فأنتم الذين ذكيتموها، فكيف تستحلون ما ذكيتم أنتم وتحرمون ما ذكى الله؟ هذه شبهتهم[1].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/١٧).

فقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ أي: شياطين بني آدم من كفار فارس؛ لأن الشيطان يكون من الجن ويكون من الإنس، ﴿لَيُوحُونَ﴾ يسرّون ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الذين يوالونهم من ضعاف الإيمان ومن المنافقين بهذه الشبهة، ﴿لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ يقولون: الميتة ذكاها الله، وأما المذبوحة فأنتم الذين ذكيتموها، فكيف تحرمون ما ذكاه الله وتحلون ما ذكيتم؟ والإنسان الذي ليس عنده علم تنطلي عليه هذه الشبهةولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي: استبحتم الميتة لهذه الشبهة وعصيتم الله عز وجل ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، وهذا من الشرك في الطاعة.

فدلّ على أن من أطاع من استحل ما حرّم الله فقد أشرك؛ لأن التحليل والتحريم حقٌ لله ـ جل وعلا ـ لا يجوز لأحدٍ أن يحلل ويحرم من عنده، فمن حلّل أو حرّم من عنده، فقد اتخذ نفسه شريكاً لله عز وجل؛ ولهذا قال ـ جل وعلا ـ في النصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فلما سمعها عدي بن حاتم ﷺ ـ وكان في الجاهلية نصرانياً ـ قال: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم. وظن أن العبادة مقصورة على الصلاة والركوع والسجود، فقال له ﷺ: **«أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟»** قال: بلى. قال: **«فتلك عبادتهم»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٠٦/٧)، وابن جرير في تفسيره (١١٤/١٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٨٤/٦)، والطبراني في الكبير (٢١٨)، والبيهقي في الكبرى (١١٦/١٠) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

وهنا يقول: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾، يعني: في استحلال الميتة، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهذا شركٌ أكبر، فمن أطاع غير الله في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله وهو يعلم أنه مخالف لتشريع الله، فإنه مشركٌ الشرك الأكبر، أما من قلّده وظنَّ أنه على حق وهو لا يدري أنه قد أستحل ماحرم الله فهذا لا يكفر الكفر الأكبر، ولكنه مُقَصِّر حيث لم يسأل ولم يتثبت، أما من علم أنه يُحل ما حَرَّم الله ويُحرم ما أحَلَّ الله، ثم يطيعه، فهذا مشرك الشرك الأكبر.

فدلّ ذلك على أن التحليل والتحريم عبادة، فمن أحلَّ ما أحل الله وحرّم ما حرّم الله فقد أطاع الله وعبد الله، ومن عَكَسَ وأطاع غير الله في ذلك فقد أشرك بالله عز وجل.

فمن أطاع المشركين في تغيير الأحكام الشرعية عما هي عليه فقد أشرك ولو كان خائفاً منهم؛ لأن الخوف لا يجيز له ذلك، بل يجب عليه أن يصبر على أذاهم، إلا إذا وصل إلى حد الإكراه، وهو القتل مثلاً أو التهديد بالقتل، فهذا يتخذ المداراة في الظاهر دون الباطن ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

قوله: (والكون معهم ونصرهم والشهادة أنهم على حق) أي: برر ما عليه الجند الظالم ووصفهم أنهم على حق، مثل: مايحصل الآن من البعض من أبناء المسلمين ـ وقد يكون من خريجي الجامعات ـ يقولون: إن اليهود والنصارى أهل كتاب وأهل أديان مثل دين الإسلام، والأديان الصحيحة ثلاثة: دين الإسلام، ودين اليهود، ودين النصارى، كلها حق. فمن قال هذا فقد ارتد عن الإسلام والعياذ بالله؛ لأن الله كفّر اليهود، وكفّر النصارى، وسبب تكفيرهم:

أولاً: أنه بعد بعثة محمد ﷺ فالواجب اتباعه على كل أحد، ومن لم يؤمن به فهو كافر، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثانياً: أن اليهود والنصارى قد حرّفوا دين الله، فالنصارى يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، ويقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم. فهل يقال: إن هؤلاء مسلمون وهم يقولون قولهم هذا؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، واليهود يعبدون العجل ويقولون: عزير ابن الله، ويكفرون بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويقتلون النبيين ويكذبونهم، ويحرفون كلام الله، ويستحلون محارم الله بأدنى الحيل.

ثالثاً: أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فأطاعوهم في تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحل الله، فهل يُقال إنهم على دين وهم على هذا الحال؟!

رابعاً: أن اليهود استحلوا الربا، ويقولون: إن الربا حرام بين اليهود فقط، أما مع غير اليهود فهو حلال، ويقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١].

فاليهود عندهم أمور كفرية شنيعة والنصارى أشد، والجميع كفارٌ لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، فكيف يُقال: إنهم على دين صحيح، وإن الإنسان بالخيار إن أراد أن يصير يهودياً أو نصرانياً أو يصير مسلماً، وأنه يجوز أن تُفتح الكنيسة بجانب المسجد، ويجوز أن يُطبع القرآن والإنجيل والتوراة بغلاف واحد؛ لأنها كلها حق؟!!! انظر كيف وصل الأمر إلى هذا الحد.

وهذا ما يقوله اليوم كثيرٌ من الصحفيين والكتّاب المحسوبين على الإسلام، يقولون: أن النصارى على حق، وهم يعلمون أنهم يقولون إن الله ثالث ثلاثة،

ويكفرون بمحمد ﷺ!! بل إن اليهود كفروا بمحمد ﷺ وكفروا بعيسى عليه السلام، وقتلوا عدداً من الأنبياء، وهموا بقتل آخرين، فكيف يُقال: إنهم على حق وإنهم مسلمون؟!!

قوله: (واستحلال دماء المسلمين وأموالهم)؛ لأن الذين غزوا بلاد نجد استحلوا دماء المسلمين وأموال المسلمين، ومن استحل ما حرَّم الله فقد كفر بالإجماع.

قوله: (والخروج عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين)، المراد بالمشركين هنا الذين يعبدون القبور والأموات، فهؤلاء تركوا ولاية المسلمين وانضموا إلى أعدائهم، وصاروا يقاتلون مع الأعداء، ويهاجمون المسلمين في بلادهم، وهم بالأمس يقولون: إنهم من جماعة المسلمين!!

قوله: (فهؤلاء أولى بالكفر والشرك ممن وافقهم على أن الميتة حلال)؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهذا في أمر الميتة، فكيف بمن أطاعهم فيما هو أشد من ذلك، وهو: استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وإخماد دعوة التوحيد، ونصرة بناء المشاهد على القبور، وإعلان الشرك بالأموات، ثم يقولون: هذا هو الدين.

الدليل الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وهذه الآية نزلت في عالمٍ عابدٍ في زمان بني إسرائيل، يقال له: بلعام، وكان يعلم الاسم الأعظم.

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما نزل بهم موسى عليه السلام ـ يعني بالجبارين ـ أتاه بنو عمه وقومه، فقالوا: إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يُهلكنا، فادع الله أن يردَّ عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله مما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1]. وقال ابن زيد: كان هواه مع القوم، يعني الذين حاربوا موسى وقومه[2].

فذكر تعالى أمر هذا المنسلخ من آيات الله بعد أن أعطاه الله إياها، وعرفها وصار من أهلها، ثم انسلخ منها، أي: ترك العمل بها، وذكر في انسلاخه منها ما معناه أنه مظاهرةُ المشركين ومعاونتهم برأيه، والدعاء على موسى ـ عليه السلام ـ ومن معه أن يردهم الله عن قومه، خوفاً على قومه وشفقة عليهم، مع كونه يعرف الحق، ويشهد به، ويتعبَّد، ولكن صده عن العمل به متابعته قومه وعشيرته وهواه، وإخلاده إلى الأرض، فكان هذا انسلاخاً من آيات الله.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢٣/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦١٧/٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٢٨/٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٢٠/٥).

وهذا هو الواقع من هؤلاء المرتدين وأعظم، فإن الله أعطاهم آياته التي فيها الأمر بتوحيده، ودعوته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك به ودعوة غيره، والأمر بموالاة المؤمنين ومحبتهم ونصرتهم، والاعتصام بحبل الله جميعاً، والكون مع المؤمنين، والأمر بمعاداة المشركين، وبغضهم وجهادهم وفراقهم، والأمر بهدم الأوثان، وإزالة القحاب[1] واللواط والمنكرات، فعرفوها وأقرُّوا بها، ثم انسلخوا من ذلك كله، فهم أولى بالانسلاخ من آيات الله والكفر والردَّة من بلعام، أو هم مثله.

الشرح:

ذكر في هذا الدليل قصة ذلك العالم من بني إسرائيل، وقد كان مجاب الدعوة؛ لأنه يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، فكان عابداً عالماً مجاب الدعوة، يقال له: بلعام بن باعوراء، وكان من بني إسرائيل إلا أنه مقيم بأرض الجبارين، فلما غزا موسى عليه السلام وبنو إسرائيل بيت المقدس يريدون فتحه واستعادته من المشركين الكنعانيين والعماليق، فخاف المشركون من موسى خوفاً شديداً، وطلبوا من بلعام أن يدعو الله على موسى ومن معه من المسلمين؛ لأنه مجاب الدعوة، فأبى وقال: **(إنني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياي وآخرتي)**، فأهدوا إليه هدية فقبلها، فراجعوه ولم يزالوا به حتى دعا على موسى ومن معه، فأخزاه الله ـ جل وعلا ـ وسلب

---

(١) أصل (القحاب) فساد الجوف، وقيل: (القحاب) هو سعال الخيل والإبل وربما جُعل للناس، وقيل للبغي: قحبة؛ لأنها كانت في الجاهلية تُؤْذن طلابها بقحابها وهو سعالها، وقيل: (القحبة) الفاجرة، وأصلها من السعال، أرادوا أنها تسعل أو تتنحنح ترمز به.
انظر: لسان العرب (١/ ٦٦١، ٦٦٢)، والمصباح المنير (٢/ ٤٩٠، ٤٩١).

منه النعمة، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، يعني: بالآيات ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ لا يريد الرفعة والعزة ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، والكلب دائماً يلهث سواءً كان في الظل أو في حر الشمس أو كان يركض أو واقفاً، فشبّه الله ـ جل وعلا ـ هذا الرجل بالكلب وهو أخس الحيوانات ـ والعياذ بالله ـ مع أنه كان عالماً عابداً، لكن لما انسلخ من آيات الله وأطاع المشركين ودعا على أولياء الله عاقبه الله جل وعلا.

فهذا دليل على أن من أطاع الكفار وساعدهم وأعانهم على المسلمين فإنه يكون مثل بلعام بن باعوراء الذي انسلخ من آيات الله.

قوله: (وذكر في انسلاخه منها ما معناه أنه مظاهرةُ المشركين ومعاونتهم برأيه، والدعاء على موسى عليه ومن معه أن يردهم الله عن قومه) فدعاؤه على المسلمين وعلى نبي الله وكليم الله موسى ـ عليه السلام ـ مظاهرة للمشركين، مع أنه لم يساعدهم بالفعل وإنما ساعدهم بالدعاء، وكل من انضم إلى الكفار ضد المسلمين بقول أو فعل، وساعد الكفار على هدم الإسلام، يكون مثل بلعام، وما أكثر الذين ينادون بأصوات الكفار اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: (هذا هو الواقع من هؤلاء المرتدين)، الذين كانوا في زمن المؤلف، الذين انضموا إلى الجيوش المهاجمة للمسلمين، وساعدوهم، وحملوهم، ودلّوهم على الطريق، ودلوهم على عورات المسلمين، فهذا ليس خاصاً ببلعام؛ بل كل من عرف الحق وانحاز إلى ضده وكان مع أهله يكون مثله ، مثل بلعام.

قوله: (وإزالة القحاب واللواط والمنكرات)، يعني: دور الزنا ودور اللواط الموجودة في بلاد المهاجمين لأهل التوحيد، فقد كان هذا هو الواقع في الأمصار؛ لا يُؤمر بالمعروف، ولا يُنهى عن المنكر، وكان الشرك فيها ظاهراً بالأموات والقبور، وبيوت البغاء واللواط فيها مفتوحة، نسأل الله العفو والعافية.

قوله: (فعرفوها وأقرّوا بها)، فهم مع علمهم بما في بلاد هؤلاء من هذه الأمور العظيمة والمنكرات الشنيعة، ساعدوهم على المسلمين وأدخلوهم بلادهم الطاهرة النزيهة، وهم أصحاب عقيدة سليمة، وأهل إيمان وتوحيد، ورغم ذلك ساعدوا أعداءهم عليهم.

وهذا موجود في القرآن العظيم، فالذي يساعد الكفار ينسلخ من القرآن؛ لأن القرآن ينهى عن مناصرة الكفار على المسلمين، وينهى عن مودة الكفار ومحبتهم في القلوب.

قوله: (فهم أولى بالانسلاخ من آيات الله والكفر والردَّة من بلعام أو هم مثله) وقد يكونوا أشد منه؛ لأن القرآن هو أعظم الكتب، ومن انسلخ منه فإن انسلاخه يكون أعظم من انسلاخ بلعام.

الدليل الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

فذكر تعالى أن الركون إلى الظلمة من الكفار والظالمين موجب لمسيس النار، ولم يُفرِّق بين من خاف منهم وغيره إلا المكره، فكيف بمن اتخذ الركون إليهم ديناً ورأياً حسناً، وأعانهم بما قدر عليه من مال ورأي، وأحبَّ زوال التوحيد وأهله، واستيلاء أهل الشرك عليهم؟! فإن هذا من أعظم الكفر والركون.

الشرح:

قوله تعالى في آخر سورة هود: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ هذا نهيٌ من الله ـ جل وعلا ـ لعباده المؤمنين، بقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟﴾ والركون: هو الميل، أي: لا تميلوا ولا تنحازوا ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم الكفار؛ لأنهم ظلموا بالكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، والكفر هو أعظم الظلم، والشرك أعظم الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، فالمشركون لما وضعوا العبادة في غير موضعها وعبدوا غير الله صاروا ظالمين، كذلك الذي كفر بالله ـ عز وجل ـ ولم ينقد لشرعه فإنه ظالم، لأنه وضع الانقياد والعبادة في غير الله عز وجل، وأسلم لغير الله، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ المراد بهم الكفار والمشركون.

وفي هذه الآية وعيد من الله ـ عز وجل ـ لمن انحاز إلى الكفار ضد المسلمين، أن يناله من الله العقوبات التالية:

العقوبة الأولى: قال: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هذا وعيدٌ شديد، وبيان لعقوبة من فعل هذا أنه تمسه النار، بمعنى: أنه يُعذب فيها، ويمسه عذابها وحرّها.

ولا شك أن النار إنما أُعدت للكافرين والمشركين، وقد يدخلها بعض عصاة المؤمنين مؤقتاً، فيعذبون فيها بقدر ذنوبهم، وأما الكفار والمشركون فيدخلونها دخولاً مؤبداً.

العقوبة الثانية: قال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ لأنكم لجأتم إلى ولاية الكفار والواجب أن تكون ولايتكم لله عز وجل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] فالمؤمن تكون ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا يتخذ الكفار أولياء ينحازُ إليهم ضد المسلمين، ويركن إليهم بقلبه وفعله وانتمائه؛ فالركون يشمل كل هذه الأمور:

- الركون إليهم بالقلب.
- الركون إليهم بالأعمال بأن يناصرهم ويؤيدهم.
- الركون إليهم بالولاء والانتماء.

كل هذه تدخل في الركون إلى الذين ظلموا، من فعلها خرج بها من ولاية الله ـ عز وجل ـ وصار من أولياء الطاغوت، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

العقوبة الثالثة: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ هذا عكس ما يريده الذين يركنون إلى الكفار، فهم يريدون أن ينصرهم الكفار، والله ـ جل وعلا ـ يعكس عليهم مرادهم، فلا ينصرهم الكفار، ولا ينصرهم الله جل وعلا.

إذاً انطلقت أيديهم من الله، وانطلقت أيديهم من المؤمنين، وتخلى عنهم الكفار، فكيف يركن الإنسان إلى عدوه، ويتعرض لهذه العقوبات المُفزعة؟

فإذا كان كذلك فالمؤمن لا يركن إلا إلى المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ينتمي إلى المسلمين ويكون معهم في الضراء والسراء، ولو أصابه ما أصابه فإنه يصبر على دينه، ولا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من النصر، بل ينتظر الفرج من الله عز وجل، هذه صفات المؤمنين.

أما صفات المنافقين وضعاف الإيمان: فإنهم عند الشدائد وعند الهزات يركنون إلى أعدائهم، وهل ترجو من عدوك أن ينفعك وينصرك؟! الجواب: لن يفعل ذلك أبداً إلا إذا وافقته على دينه، فإذا وافقته على دينه وصرت مثله فإنك حينئذٍ تكون من الكافرين، وأنت تزعم أنك مؤمن.

فهذه الآية فيها بيان الخطر العظيم في الميل إلى الكفار والركون إليهم، وأن الواجب على المسلم أن يعتز بدينه، ويصبر على ما يصيبه، وأن يتخذ الكفار أعداء، ولا يتخذهم أعواناً له أو أنصاراً.

ولا يمنع هذا أن يتعامل معهم بالمعاملات المباحة كالبيع والشراء، إنما الكلام أنه ينضم إليهم في دينهم وعقيدتهم ومحبتهم، ويناصرهم على المسلمين، هذا هو الممنوع، أما أنه يتعامل معهم بالمباح فهذا أمرٌ لا بأس به، وليس هذا من الركون إليهم، فنحن إذا

اشترينا منهم أسلحة، أو ذخيرة، أو تعاملنا مع مصانعهم واستوردنا من منتوجاتهم، هذا لأجل منفعة المسلمين، وهو من أمور الدنيا، فلا يدخل هذا في الركون إلى الذين ظلموا، وهذا إنما نأخذه منهم بالثمن والقيمة، فليس لهم علينا فضل في هذا ولا منّة ـ والحمد لله ـ فعند المسلمين من الثروات المعدنية ما يجعل الكفار يتسابقون إلى التعامل معهم، ويبيع منتوجاتهم عليهم.

قوله: (فذكر تعالى أن الركون إلى الظلمة من الكفار والظالمين موجب لمسيس النار، ولم يفرِّق بين من خاف منهم وغيره إلا المُكره)، لم يفرِّق الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ولم يستثن إلا في حالة كذا وكذا، ولم يستثنِ إلا المُكره؛ كما في آية النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فالمُكره يتخلص من الإكراه، ويدفع الإكراه بموافقتهم على شيء في الظاهر، في أمر من أمور الدنيا مداراةً لهم، أما في أمور العقيدة والدين فلا يتنازل عن شيء منها، لكن في حالة الإكراه يظهر الموافقة لهم فيما لا يمس الدين بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان.

فمن وافقهم بظاهره وبقلبه فهو كافر، وأما من وافقهم بظاهره دون قلبه فإن كان غير مُكره فهذا مرتد عن دينه، ولأن هذا من الركون إليهم، وإن كان مُكرهاً جاز له ذلك من باب الرخصة؛ فالرخصة تُقدر بقدرها ولا يُزاد عليها، فإذا زال الإكراه عاد الإنسان إلى التمسك بدينه والاعتزاز بعقيدته ظاهراً وباطناً، وعدم المساومة على شيء من أمور دينه، ذلك لمن يريد النجاة والسعادة في الآخرة.

أما الذي يريد الدنيا فإنه يشتريها بأي ثمن ولو بدينه، أما الذي يريد الآخرة فإنه يبيع الدنيا من أجل دينه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم

وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١]، فالمسلم يبيع دنياه من أجل سلامة دينه، والمنافق يبيع دينه من أجل سلامة دنياه.

فمجرد الخوف منهم لا يبيح للمسلم أن يركن إليهم، بل يصبر ولا يخاف إلا الله عز وجل، زإذا خاف منهم سلّطهم الله عليه، لكنه إذا خاف من الله منعه منهم، وهذا شيء معروف لكنه يحتاج إلى قوة إيمان، وقوة عقيدة، وصبر واحتساب.

قوله: (فكيف بمن اتخذ الركون إليهم ديناً ورأياً حسنا؟) كيف بمن تجاوز الركون إليهم في حالة الخوف - مع أن ذلك لا يجوز - إلى أن يتخذ الركون إليهم ديناً؟ يقول: هذا من الدين، وكلهم بنو آدم، وهم إخواننا في الإنسانية، وينادي بحرية الأديان، ويقول: كلٌّ له دينه. من باب الإقرار له وتصحيح ما هو عليه من الكفر.

وهذا معناه أن نترك الولاء والبراء، ولا نفرق بين الحق والباطل، وهذه الفكرة ينادي بها الآن بعض أبناء المسلمين، وهي نابعة أصلاً من الكفار، وروجها بعض الجهلة من المسلمين أو المنافقين، وقالوا: إن بني الإنسانية كلهم أخوة، ويجب أن يُترك الناس كلٌّ يعتقد ما يشاء، ولا حجر على الناس في أديانهم، ولا وصاية عليهم.

إذاً لا حاجة إلى القرآن ولا السنة، ولا حاجة إلى إرسال الرسول ﷺ، على هذا الرأي وعلى هذا القول.

ويقولون أيضاً: هذا هو السياسة وهذا هو الرأي الحسن، والذي يتشدد ويمنع من موالاة الكفار هذا من المتطرفين والمنحرفين والغلاة، وهذا غلو وإفراط وتشدد .. إلى آخر ما يقولون.

لكن المؤمن لا يهمه هذا، ولا يلتفت إلى هذه الأقوال، فيصبر على دينه ؛ لأنه على الحق، وهذه الأقوال إنما تضر أصحابها، ولا تضر المؤمنين شيئاً.

ويقولون أيضاً: الذي لا يركن إليهم ويميل إليهم ليس عنده رأي، وأن الرأي السديد أن يتخذ عندهم يداً فإذا ظهرت دولتهم يصير له يد عندهم ؛ ذلك لأنهم لا يُحسنون الظن بالله عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ ﴾ [المائدة: ٥٢]، يقولون: إذا انتصر الكفار على المسلمين وقد تعاملنا معهم من قبل ووثقنا الصلة معهم بالتنازل عن شيء من ديننا فإنهم لا يضروننا. وهذا من سوء الظن بالله عز وجل ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ [الفتح: ١٢]، بوراً: أي هالكين.

ومن ظن أن الله لن ينصر دينه، وأن الله يديل الكفر على الإيمان إدالة مستقرة مستمرة، فقد ظن بربه ظن السوء.

قوله: (وأعانهم بما قدر عليه من مال ورأي) كما حصل من الذين انظموا إلى الجيش الغازي لبلاد الإسلام و هذا من الركون إليهم أن يعينهم بالمال والرأي والتخطيط.

قوله: (وأحب زوال التوحيد وأهله) هذه مصيبة كبرى، من اتصف بها فلا شك في ردته وحبوط عمله إذا أحب زوال التوحيد وأهله وانتصار الكفر، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٦]، فمن كره التوحيد، وكره دين الله، وأحبَّ ما عليه الكفار، فهذا كره ما أنزل الله، فهو مرتد عن دين الإسلام بنص الآية الكريمة.

الدليل الرابع عشر: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٠٧﴾ [النحل: ١٠٦، ١٠٧].

فحكم تعالى حكماً لا يُبدَّل أن من رجع عن دينه إلى الكفر، فهو كافر، سواءً كان له عذر خوفاً على نفس أو مال أو أهل، أم لا، وسواءً كفر بباطنه أم بظاهره دون باطنه، وسواء كفر بفعاله ومقاله أم بأحدهما دون الآخر، وسواء كان طامعاً في دنيا ينالها من المشركين أم لا، فهو كافر على كل حال، إلا المكره، وهو في لغتنا: المغصوب.

فإذا أُكره الإنسان على الكفر وقيل له: اكفر وإلا قتلناك أو ضربناك، أو أخذه المشركون فضربوه، ولم يمكنه التخلص إلا بموافقتهم، جاز له موافقتهم في الظاهر، بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان، أي: ثابتاً عليه، معتقداً له، فأما إن وافقهم بقلبه فهو كافر ولو كان مكرهاً.

الشرح:

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾، والذي يكفر بالله بعد إيمانه هو المرتد؛ لأنه ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، وصار كافراً، بل المرتد شرٌّ من الكافر الأصلي؛ ولذلك يُقتل المرتد حداً؛ لأنه متلاعب بالدين، وقتله من أجل حماية العقيدة وصيانتها من التلاعب، فمن دخل في الإسلام عن اقتناع وعقيدة فإنه لا يجوز له أن يرتد عنه؛ لأنه ما دخل فيه إلا وقد اعترف أنه حق، فإذا ارتدّ عنه فقد كذّب

بالحق بعد معرفته ؛ فلذلك لا يصلح للبقاء لأنه متلاعب بدين الله عز وجل ، وحد المرتد أن يُقتل.

إلا إن كان له شبهات أو له أسباب أو كان جاهلاً ، فإنه ينَاقش ويستتاب حتى يزول عذره ـ عذر الجهل ، أو الشبهة ـ وإن كان مكرهاً يُعرف إنه مكره فإنه لايحكم عليه بالردة لأن الله جل رخص له بما يزيل عنه الإكراه.

فالمقصود أن المرتد يُناقش ويستتاب لأجل أن يزول عذره ، فإن أبى أن يرجع إلى الإسلام وأصرَّ على الردة فإنه يُقتل.

قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ هذه جملة معترضة ، فجواب **(من)** أو خبر المبتدأ في قوله : ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ هو قوله : ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ما السبب؟ الجواب : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ هذا هو السبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ؛ أي ارتدوا عن دينهم من أجل أن ينالوا طمعاً من الكفار ؛ طمعاً في مال أو جاه أو وظيفةً ، أو أي طمع في أي شيء من أطماع الدنيا.

فمن ارتد عن دينه من أجل ذلك فهو ممن ﴿ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وقد توعده الله ـ جل وعلا ـ بأن يحل عليه غضبه وأن يعذبه عذاباً عظيماً ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، حكم سبحانه بكفره وأخبر أنه لا يوفّقه للرجوع إلى الإسلام عقوبة له.

والله سبحانه رخّص لمن أُكره أن يتخلص من الإكراه ، وقد مر معنا أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ﷺ لما أخذه الكفار وعذبوه ولم يطلقوه إلا أن يسب الرسول ﷺ ويذكر آلهتهم بخير، فمن أجل دفع شرهم سب الرسول ﷺ، فأطلقوه ، فندم على ما

حصل منه، وخاف من الله جل وعلا، فلما أتى رسول الله ﷺ قال له: **«ما وراءك؟»** قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: **«كيف تجد قلبك؟»**، قال: مطمئناً بالإيمان، قال: **«إن عادوا فعد»**[1].

وهذه رخصة باقية وعامة لكل من وقع في مثل حالة عمار ﷺ، فله أن يتخلص من الإكراه بالموافقة في الظاهر لا بالباطن، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨] تقاةً في الظاهر، فآية آل عمران مثل آية النحل سواءً بسواء في إباحة التخلص من الإكراه، وموافقة الكافرين في الظاهر دون الباطن؛ لأجل التخلص من الإكراه مع البقاء على الإيمان.

ثم قال -جل وعلا-: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، والطبع على القلب: معناه أن يُختم على القلب فلا يقبل الهدى بعد ذلك، وهذه عقوبة شنيعة والعياذ بالله، فالمرتد إذا لم يتب إلى الله فإن الله يطبع على قلبه، فلا يَقْبَل الهُدَى بعد ذلك عقوبةً له، وهذا أشد من كونه يُقتل أو يُحرَّق أو يُعذب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٦٠)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٢٤٩)، والطبري في تفسيره (١٤/ ١٨٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٠٨) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١٠٨ ـ ١١٠].

قوله: (فحكم تعالى حكماً لا يُبدَّل أن من رجع عن دينه فهو كافر)، وهذا هو المرتد؛ لأنه ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام، إلا في حالة واحدة وهي حالة: الإكراه.

قوله: (سواءٌ كان له عذر خوفاً على نفس أو مال أو أهل، أو لا، وسواءٌ كفر بباطنه أو بظاهره دون باطنه)، هذا كله مأخوذ من قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، فيركن إلى الكفار ويطيعهم وهو غير مكره؛ كمن يطمع في الدنيا إيثاراً للعيش معهم بسلام ... إلى آخر المطامع، فهذا لا يُعذر أبد، حتى ولو وافقهم في الظاهر، ما دام لم يصل إلى حد الإكراه؛ لأنه لا يجوز أن يوافقهم لا في الظاهر ولا في الباطن.

قوله: (وسواء كفر بفعاله ومقاله أو بأحدهما دون الآخر)؛ لأن الردّة أنواع كثيرة، منها: ما هو قولي، ومنها: ما هو اعتقادي، ومنها: ما هو عملي، ومنها: ما هو شكٌ في القلب، ومن ارتكب شيئاً منها وهو غير معذور فإنه يكفر، سواءٌ فعله بالظاهر أو بالباطن، أو فعله خوفاً من الكفار ولم يصل إلى حد الإكراه، أو فعله من أجل طمع الدنيا، فالردة لا تسوغ أبداً.

قوله: (وسواءٌ كان طامعاً في دنيا ينالها من المشركين أم لا، فهو كافر على كل حال إلا المكره) إلا إذا وصل الأمر إلى حد الإكراه، فإنه يُرخص له أن يوافقهم في ظاهره فقط لا بقلبه.

قوله: (إلا المكره وهو في لغتنا: المغصوب)، يعني: في لغة العوام: المكره هو المغصوب.

قوله: (فإذا أُكره الإنسان على الكفر وقيل له: اكفر وإلا قتلناك أو ضربناك، أو أخذه المشركون فضربوه، ولم يمكنه التخلص إلا بموافقتهم، جاز له موافقتهم في الظاهر، بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان)، ذكر هنا الشرطين:

الأول: (لم يمكنه التخلص إلا بموافقتهم).

والثاني: (موافقتهم في الظاهر) دون الباطن.

وهذا ما يُسمى بالمداراة.

قوله: (أي: ثابتاً عليه، معتقداً له. فأما إن وافقهم بقلبه فهو كافر ولو كان مكرهاً)؛ لأن الموافقة بالقلب لا تجوز ولو أُكره؛ لأن القلب لا يقدر أحد على التصرف فيه إلا الله سبحانه مقلب القلوب، والكفار لا يستطيعون السيطرة على القلب، ولا يدرون ما في القلب، فإذا بقيت على إيمانك في قلبك فإنهم لايدرون عن ذلك ولا يعلمون الغيب، فلا حاجة أن تتحول بقلبك؛ لأن القلوب بيد الله ولا يطلع عليها إلا الله، والكفار إنما يعلمون الظاهر فقط.

قال رحمه الله: وظاهر كلام أحمد[1] ـ رحمه الله ـ: أنه في الصورة الأولى لا يكون مكرهاً حتى يعذبه المشركون، فإنه لما دخل عليه يحيي بن معين[2] وهو مريض، فسلّم عليه فلم يرد عليه السلام، فما زال يعتذر ويقول: حديث عمّار، وقال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر؛ فقال يحيي: لا يقبل عذراً!!

فلما خرج يحيي قال أحمد: يُحتج بحديث عمار.

وحديث عمار ﷺ: مررت بهم وهم يسبُّونك فنهيتهم فضربوني، وأنتم قيل لكم: نريد أن نضربكم.

فقال يحيي: ما رأيتُ والله تحت أديم السماء أفقه في دين الله تعالى منك[3].

---

(١) هو أحد الأعلام من أئمة الإسلام، إمام المحدثين، والناصر للدين، والمناضل عن السنة، والصابر في المحنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، ولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة، وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين.
انظر: سيرة الإمام أحمد بن حنبل لأبي الفضل صالح بن أحمد بن حنبل (ص٢٩ وما بعدها)، وتاريخ دمشق (٢٥٢/٥)، وسير الأعلام (١٧٨/١١)، والبداية والنهاية (٣٢٥/١٠)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢٧/٢).

(٢) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن، وقيل يحيى بن معين بن غياث بن زياد بن عون بن بسطام، أبو زكريا المري مولاهم البغدادي، قال ابن المديني: «ما أعلم أحداً كتب ما كتب يحيى بن معين» اهـ، وقال الخطيب: «كان إماماً ربانياً عالماً حافظاً ثبتاً متقناً» اهـ، ولد سنة ثمان وخمسين ومائة، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.
انظر: تاريخ بغداد (١٧٧/١٤)، وتاريخ دمشق (٣/٦٥)، وطبقات الحنابلة (٤٠٢/١)، ووفيات الأعيان (١٣٩/٦)، والعبر (٤١٥/١)، والأنساب (٢٧٠/٥)، وطبقات الحفاظ (ص١٨٨).

(٣) انظر: طبقات الحنابلة (٤٠٤/١).

الشرح:

قوله: (وظاهر كلام أحمد رحمه الله: أنه في الصورة الأولى لا يكون مكرهاً حتى يعذبه المشركون)، الصورة الأولى هي قولهم له: **(اكفر وإلا قتلناك أو ضربناك)** فلا يكون مكرهاً حتى يعذبه المشركون، أما مجرد التهديد فظاهر كلام الإمام أحمد أنه لا يبيح له ذلك حتى يعذبوه بالفعل، وقوله: **(ظاهر كلام أحمد)** أي: لم ينص عليه ـ رحمه الله ـ ولكنه ظاهر كلامه.

قوله: (فضربوني)، يعني: لم يحصل منهم تهديدٌ فقط، بل وقع الضرب فعلاً.

قوله: (نريد أن نضربكم)، فهو تهديد بالقول فقط، يريدون موافقتهم بمجرد التهديد، وظاهر كلام أحمد أن التهديد ليس بعذر في مسألة الكفر.

قوله: (فقال يحيى: ما رأيتُ والله تحت أديم السماء أفقه في دين الله تعالى منك)، يعني: أحمد ـ رحمه الله ـ بموجب هذا الأثر لأنه فهم قصة عمار فهماً صحيحاً.

أما يحيى بن معين الإمام المحدث وقرين الإمام أحمد في علم الحديث، وصديقه أيضاً، فإنه قد عاصر فتنة القول بخلق القرآن في عهد المأمون، وقد امتحنه نائب المأمون ببغداد مع عدد من القضاة والمحدثين، فأجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾، فأشهر موافقتهم أمام خلق كثير من مشايخ الحديث والفقهاء وأئمة المساجد وغيرهم، ودعاهم إلى القول بخلق القرآن عن أمر المأمون، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك في الظاهر عملاً برخصة

الإكراه، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون[1].

وامتنع عدد من العلماء عن القول بخلق القرآن، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل، ومعه محمد بن نوح، فقيدهما نائب المأمون وجمعهما في الحديد وبعث بهما إلى المأمون، إلا أن المأمون قد هلك قبل وصولهما إليه.

فكان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يرى أنه ما كان ينبغي لهؤلاء المحدثين والعلماء وفيهم ابن معين أن يجيبوا المأمون في الظاهر بمجرد التهديد؛ لأن الأمر ما وصل إلى التعذيب وإنما هو تهديدٌ فقط، وكان يقول ـ رحمه الله ـ: ما جاء وقت الرخصة إلى الآن. وقد شهد له يحيى بن معين ـ رحمه الله ـ بأنه أفقه من رأى في دين الله، حيث فرَّق بين التهديد بالتعذيب ووقوع التعذيب فعلاً؛ لأن عماراً ﷺ الذي يُحتج بقصته قد عُذِّبَ فعلاً ولم يُهدد فقط، فمجرد التهديد من غير تعذيب يعد من الخوف، والخوف لا يبيح الموافقة للكفار فيما يطلبونه من المسلم مما فيه مساس بالدين، وهذا من دقة فقه الإمام أحمد؛ كما شهد له بذلك يحيى ابن معين رحمه الله.

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٣/٦)، والبداية والنهاية (١٠/٢٧٢ ـ ٢٧٤).

قال رحمه الله: ثم أخبر تعالى أن هؤلاء المرتدين الشارحين صدورهم بالكفر، وإن كانوا يقطعون على الحق ويقولون: ما فعلنا هذا إلا خوفاً؛ فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذابٌ عظيم.

ثم أخبر تعالى: أن سبب هذا الكفر والعذاب ليس بسبب الاعتقاد للشرك، أو الجهل بالتوحيد، أو البغض للدين، أو محبة الكفر، وإنما سببه: أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا، فآثره على الدين وعلى رضى رب العالمين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، فكفَّرهم تعالى، وأخبر أنه لا يهديهم مع كونهم يعتذرون بمحبة الدنيا.

ثم أخبر تعالى: أن هؤلاء المرتدين لأجل استحباب الدنيا على الآخرة، هم الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأنهم الغافلون، ثم أخبر خبراً مؤكداً محققاً أنهم في الآخرة هم الخاسرون.

الشرح:

وفي هذا أيضاً دليل على أن مجرد الخوف لا يبيح التنازل عن شيء من الدين، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ويقول: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، فالخوف والخشية إنما تكون لله عز وجل، ومجرد الخوف والخشية من الكفار لا يبيح للإنسان أن يتنازل عن شيء من دينه ولو في الظاهر، أما في الباطن فهذا لا يجوز في حال من الأحوال، وقد قال المنافقون: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، ولم يعذرهم الله ـ جل وعلا ـ بذلك.

قوله: (ثم أخبر تعالى: أن سبب هذا الكفر والعذاب ليس بسبب الاعتقاد للشرك، أو الجهل بالتوحيد، أو البغض للدين، أو محبة الكفر، وإنما سببه: أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا)، الله - جل وعلا - علّل هذا في آخر الآية بأن الذي حملهم على ذلك ليس هو الخوف من القتل أو التعذيب، إنما الذي دفعهم هو حبُّ الدنيا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فكان عقاب الله - جل وعلا - لهم بأن ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: حرمهم من الهداية - والعياذ بالله - عقوبةً لهم.

قوله: (فكفّرهم تعالى، وأخبر أنه لا يهديهم مع كونهم يعتذرون بمحبة الدنيا) ولم يعذرهم بهذا، بل حكم عليهم بالكفر، وتوعدهم بأنه لا يوفقهم بعد ذلك إلى قبول الحق والتوبة عقوبةً لهم، وإذا فسد قلب الإنسان فإنه لا يقبل الهدى بعد ذلك، وكان هذا أعظم عليه من القتل، وأعظم عليه من خسارة الدنيا كلها؛ لأنه إذا فسد قلبه لم يبق له شيء، وحياته في هذه الدنيا شرٌّ من حياة البهائم؛ لأنه يعيش بلا قلب؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

قوله: (ثم أخبر تعالى: أن هؤلاء المرتدين لأجل استحباب الدنيا على الآخرة، هم الذين طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وأنهم هم الغافلون) طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فنتج عن هذا أنهم صاروا غافلين عن آيات عز وجل، لا ينتفعون بها، وإن سمعوها لا يفقهونها، والطبع على القلب هو وضع حجاب عليه مختوم بطابع، بحيث لا يفك هذا الحجاب عنه ولا يصل إليه النور.

قوله: (ثم أخبر خبراً مؤكداً محققاً أنهم في الآخرة هم الخاسرون) وهم يظنون أنهم في الدنيا حازوا على الغنيمة والسلامة، ولو فرضنا أنهم حازوا على ذلك في الدنيا، لكنهم في الآخرة هم الخاسرون، ولا ينفعهم ما حصّلوا عليه من الدنيا؛ لأن الدنيا سريعة الزوال، والآخرة باقية على الدوام.

الدليل الخامس عشر: قوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

فذكر تعالى عن أهل الكهف أنهم ذكروا عن المشركين: إن قهروكم وغلبوكم فهم بين أمرين:

إما أن يرجموكم، أي: يقتلوكم شرَّ قتلة بالرجم، وإمّا أن يعيدوكم في ملتهم ودينهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي: وإن وافقتموهم على دينهم بعد أن غلبوكم وقهروكم، فلن تفلحوا إذاً أبداً.

فهذا حال من وافقهم بعد أن غلبوه، فكيف بمن وافقهم وراسلهم من بعيد، وأجابهم إلى ما طلبوا من غير غلبة ولا إكراه، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون؟!

الشرح:

أهل الكهف؛ كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وكان قومهم على الشرك، فأنكروا الشرك، ولكنهم خشوا أن يصرفهم الكفار عن دينهم؛ فخرجوا من البلد فارين بدينهم، قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا إنكار على قومهم ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ يعني: هلاّ يأتون عليهم ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ يعني: حجة.

والمشرك ليس له حجة إلا التقليد، واتباع الناس على ما هم عليه، وليس ذلك حجة، إنما الحجة تقوم على التوحيد وليست على الشرك، والمشرك ليس له إلا مجرد شبهات، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، فهم لما أشركوا بالله صاروا ظلمة أعظم الظلم؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ اختاروا أن يذهبوا إلى كهف يلجؤون فيه ويختفون عن قومهم لئلا يخرجوا في طلبهم.

انظر إلى شبه هذا بقصة الرسول ﷺ في الهجرة لما اختفى هو وصاحبه في غار ثور، حتى انقطع طلب المشركين عنهم، فهؤلاء الفتية اختفوا في هذا الغار من أجل ألا يعثر عليهم الكفار، وبينما هم كذلك أصابهم النوم، ومعهم كلبهم أصابه النوم مثلهم، وبقوا على هذا الحال سنين لا يعلمها إلا الله عز وجل، والله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تتأثر جنوبهم من طول المكث، وطالت شعورهم وطالت أظفارهم، قال تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]، يقول الله ـ جل وعلا ـ لنبينا محمد ﷺ: لو اطلعت عليهم في الغار وهم على هذه الحالة بعد السنين الطويلة وهم نيام والذي يراهم يحسبهم أيقاظاً، ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وهذا من آيات الله عز وجل.

ولما استيقظوا بعد مدة طويلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، أو أكثر الله أعلم ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ [الكهف: ٢٦] لما استيقظوا يحسبون أنهم ناموا أول النهار واستيقظوا في المساء، قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] ويحسبون أنهم في يومهم لا يزالون، ثم إنهم شعروا بالجوع فأرسلوا من يشتري لهم الطعام، وإذا بالبلد قد تغير،

وأهله أسلموا، والملك أسلم، وأهل الكهف يظنون أن الجيل الأول لا زال باقياً، فلما رأى أهل البلد هذا الشخص استغربوه، واستغربوا النقود التي معه؛ لأنها نقود قديمة، من ضرب السلطان الأول الذي مر عليه قرون، فلما أحس أنهم تنبهوا له هرب، فلما جاء إلى أصحابه وإذا هم قد قبض الله أرواحهم، وجاء الناس بأثره فوجدوهم موتى في الغار، وتشاوروا ماذا يصنعون بهم ... كما في آخر القصة في الآية.

الشاهد: قولهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ينتصروا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ لأجل دينكم يريدون أن تعودا إلى ملتهم، أي: يقتلوكم بالحجارة ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]، فإذا رجعتم إلى ملتهم بسبب التهديد وبسبب الضرب فلن تفلحوا إذاً أبداً، فدلّ هذا على أنه لا يجوز للإنسان أنه يتنازل عن عقيدته في حال من الأحوال، حتى ولو قُتل، أو حُرّق، كما قال ﷺ: **«لا تُشرك بالله وإن قُتلت وحُرّقت»**[1]،

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم:
فقد رواه من حديث معاذ بن جبل ﷺ: أحمد في المسند (٢٣٨/٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٩٠/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣٠٦/٩)، والطبراني في الأوسط (٥٨/٨)، قال الهيثمي في زوائده (٢١٥/٤): «رجال أحمد ثقات إلا أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير لم يسمع من معاذ، وإسناد الطبراني متصل وفيه عمرو بن واقد القرشي وهو كذاب» اهـ.
ورواه من حديث أبي الدرداء ﷺ: ابن ماجه (٤٠٣٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٠)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٨٤/٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨٢٣/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١/٥)، قال الهيثمي في زوائده (٢١٧/٤): «فيه شهر بن حوشب وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات» اهـ.
ورواه من حديث أميمة مولاة النبي ﷺ: المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٨٦/٢)، وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٢١٥/٦)، والطبراني في الكبير (٤٧٩)، والحاكم في المستدرك (٤٤/٤)، قال الهيثمي في زوائده (٢١٧/٤): «فيه يزيد بن سنان الرهاوي وثقه البخاري

فالإنسان لا يتنازل عن دينه، أما كونه يترخص في الظاهر عند الإكراه هذا شيء آخر، لكن لا يجوز له أن يتنازل عن دينه إلى دين المشركين في حال من الأحوال، حتى ولو قُتل، كما في قصة الذي قرَّب ذباباً للصنم وخلوا سبيله فدخل النار؛ لأنه وافق الكفار على دينهم[1].

قوله: (فذكر تعالى عن أهل الكهف أنهم ذكروا عن المشركين أنهم إن قهروكم وغلبوكم فهم بين أمرين: إما أن يرجموكم، أي: يقتلوكم شرَّ قتلة بالرجم؛ وإمّا أن يعيدوكم في ملتهم ودينهم)، يعني: أنتم بين أمرين: إمّا أنهم يرجمونكم فتموتون تحت الحجارة، أو أنهم يصرفونكم عن دينكم، فإن أطعتموهم وانصرفتم عن الدين تركوكم، وكلا الأمرين صعب.

قوله: (وإن وافقتموهم على دينهم) يعني: في القلب بأن تنازلتم عن عقيدتكم.

قوله: (بعد أن غلبوكم وقهروكم، فلن تفلحوا إذاً أبداً) لأن المشرك والمرتد لا يُفلح أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وغيره، والأكثر على تضعيفه، وبقية رجاله ثقات» اهـ. وجاء من حديث أم أيمن، وابن مسعود، وأبي ذر، وخباب بن الأرت، رضي الله عنهم.

(١) ورد في الأثر الذي أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٤٧٣)، وأحمد في الزهد (ص١٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/٢٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٤٨٥) عن سلمان الفارسي ﷺ أنه قال: «مَرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قَرِّب، قال: ليس عندي شيء، قالوا: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر: قَرِّب ولو ذباباً، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله، فضربوا عنقه، فدخل الجنة».

قوله : (فهذا حال من وافقهم بعد أن غلبوه ، فكيف بمن وافقهم وراسلهم من بعيد) يُعرِّض المؤلف ـ رحمه الله ـ بأهل زمانه ، الذين راسلوا الجيوش الغازية التي هاجمت المسلمين ، وقالوا : لهم نحن معكم ونؤيدكم ، ونحملكم ، وندلكم على الطريق.

قوله : (وأجابهم إلى ما طلبوا من غير غلبة ولا إكراه)، بل هو الذي شجعهم ، وجرّهم على البلاد ، كيف لايكون مرتداً عن دين الإسلام بهذا العمل؟.

الدليل السادس عشر: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ **[الحج: ١١].**

فأخبر تعالى أن ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ **أي: على طرف** ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ **أي: نصر وعز وصحة وسعة وأمن وعافية، ونحو ذلك** ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ **أي: ثبت وقال: هذا دين حسن ما رأينا فيه إلا خيرا.** ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ **أي: خوف ومرض وفقر ونحو ذلك،** ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ **أي: ارتدَّ عن دينه ورجع إلى أهل الشرك.**

الشرح:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي بعض الناس، ﴿مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ يعني: على طرفٍ من الدين، لم يتمكن الإيمان من قلبه، أو ليس في قلبه إيمان ولكنه أسلم لأجل المعيشة في الدنيا؛ كحالة المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١].

فالله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء، ويعامل الناس بحسب نياتهم ومقاصدهم، أما نحن فنعامل الناس بحسب ما أظهروه لنا، فمن أظهر الإسلام قبلناه حتى يتبين منه ما ينافي ظاهره فيعامل معاملة المرتد، أما من لم يظهر لنا منه شيء ينقض

إسلامه فإننا نقبله ونكل سريرته إلى الله عز وجل، فإن كان صادقاً في إيمانه أعطاه الله أجر المؤمنين، وإن كان كاذباً في إيمانه جازاه الله جزاء المنافقين، فهو وإن سَلِمَ مِنَّا لا يَسْلَم من الله عز وجل، حتى يكون ظاهره وباطنه على الإيمان من غير نفاق، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ طمع من الدنيا ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ اطمأن بهذا الخير، وقال: هذا الدين فيه خير وفيه غبطة. لما يعيش فيه من نعمة وأمن واستقرار، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء وامتحان من أجل دينه ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ فظهر ما كان يُكنُّه في نفسه من الشك والريب والنفاق؛ لأن الخفايا تظهر عند الشدائد والمحن.

وهذه هي الحكمة من إجراء الله الفتن على العباد وامتحان العباد من أجل أن يظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، وقال جل وعلا: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] فالله يجري الامتحان والابتلاء في هذه الدنيا ليتميز الصادق في إيمانه الذي يثبت عند الشدائد والمحن من الذي ينقلب على عقبيه ويتخلى عن هذا الدين.

وهذا هو ما حصل في هذه الفتنة التي جرت في وقت الشيخ - رحمه الله - على أهل نجد، فإنهم كان فيهم من المنافقين والأعراب من كان يعيش معهم ويتستر بستر الإسلام وينال من الخير، فلما جاءت الفتنة والجيوش الجرارة على أهل التوحيد انكشفت حقائقهم وانضموا إلى جيوش المحاربين لأهل التوحيد، وصاروا معهم، فظهر ما كانوا يخفون ويُبطنون، وصار إيمانهم مجرد تصنع لأجل طمع من مطامع الدنيا، هذا وجه المطابقة بين الآية وبين ما وقع.

قولــه: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ يعــني: ارتــدّ، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ هــو فعل هذا لأجل أن يكسب دنيا، ولأجل أنه يطمع فيما عند الأعداء، أو لأجل أن ينجو من شرهم، لكن لم يحصل له هذا، فلا هو الذي بقي على دينه وربح الآخرة ولا هو الذي نال ما يريد في انقلابه وردَّته، فحصلت عليه الخسارتان والعياذ بالله.

فهذه الآية مطابقة تماماً لما جرى في نجد وقت الفتنة من أناس كانوا يظهرون أنهم من أهل التوحيد، وأنهم آمنوا بالله واقتنعوا، فلما جاءت الفتنة انكشفت حقائقهم وصاروا ضد أهل التوحيد، وهكذا الفتن إذا جاءت تبين الصادق من الكاذب.

ونحن الآن نعيش في فتنة من الكفار، فهم يريدون أن يغيروا كل شيء في ديننا وأن يجعلونا تبعاً لهم، وننفذ ما يريدون ولو خالف ديننا، فمن الناس من استجاب لهم، وصار يتكلم بألسنتهم ويكتب ويسب المسلمين ويسب الإسلام والدين، ويعتبره غلواً وتطرفاً .. إلى آخر ما يقولون، فما أشبه الليلة بالبارحة.

قوله: (فأخبر تعالى أن من الناس من يعبد الله على حرف أي على طرف) ففي وقت الرخاء الناس كلهم سواء، ولا يُدرى عن الصادق من الكاذب، لكن في وقت الشدة يتبين الصادق من الكاذب.

قال رحمه الله: فهذه الآية مطابقة لحال المنقلبين عن دينهم في هذه الفتنة سواء بسواء، فإنهم قبل هذه الفتنة يعبدون الله على حرف، أي: على طرف، ليسوا ممن يعبد الله على يقين وثبات، فلما أصابتهم هذه الفتنة انقلبوا عن دينهم، وأظهروا موافقة المشركين، وأعطوهم الطاعة، وخرجوا عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين، فهم معهم في الآخرة، كما هم معهم في الدنيا، فخسروا الدنيا ة والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

هذا مع أن كثيراً منهم في عافية، ما آتاهم عدو، وإنما ساء ظنهم بالله، فظنوا أنه يديل الباطل وأهله على الحق وأهله، فأرداهم سوء ظنهم بالله؛ كما قال تعالى فيمن ظن به ظن السوء: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ **[فصلت: ٢٣].**

الشرح:

قوله: **(فهذه الآية مطابقة لحال المنقلبين عن دينهم في هذه الفتنة)**، يعني: الفتنة التي جرت على أهل التوحيد في وقت المصنف رحمه الله، فقد انحاز كثيرٌ من أهل البلاد إلى الأعداء، وصاروا يقاتلون معهم، ويدلونهم على الطرق، ويحملون لهم الأسلحة والذخيرة، ويدلونهم على عورات المسلمين، حتى إنهم وشوا بالمؤلف ـ رحمه الله ـ بعد الصلح بين أهل البلاد والجيوش الغازية فقُتل صبراً بسبب ذلك على يد قائد الجيش.

قوله: (يعبدون الله على حرف، أي: على طرف، ليسوا ممن يعبد الله على يقين وثبات، فلما أصابتهم هذه الفتنة انقلبوا عن دينهم، وأظهروا موافقة المشركين)، يعني موافقة عباد القبور؛ كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وإنما ينظرون إلى المنتصر فإن كان المنتصر أهل الإيمان انضموا إليهم، وإن كان المنتصر أهل الكفر انضموا إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

قوله: (وأعطوهم الطاعة، وخرجوا عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين) من عباد القبور والأضرحة وصاروا يأتمرون بأوامر الجيش الغازي، وينفذون أوامره على أهل بلادهم وعلى أهل دينهم طمعاً في الدنيا أو دفعاً للخوف بزعمهم، والإنسان قد يفعل هذا دفعاً للخوف ويظن أن الخوف سيندفع، والخوف لا يندفع إلا بالإيمان والاعتماد على الله عز وجل؛ ولهذا قال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

قوله: (وخرجوا عن جماعة المسلمين إلى جماعة المشركين) أي انظموا إلى الذين يعبدون القبور والأضرحة، فهم لا يعبدون الأصنام كحال المشركين الأولين، ولكن يبنون على القبور من أجل أن تُعبد، فإذا عُبِدَت فهذا شرك بالله مثل شرك الأولين لا فرق.

قوله: (فهم معهم في الآخرة، كما هم معهم في الدنيا، فخسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين) ولذلك في يوم القيامة يعطى الله المؤمنين النور الذي يمشون به، ويعطى المنافقين شيئاً من النور في البداية فإذا مشوا انطفأ نورهم، فيقولون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن

مَّعَكُمْ ﴾ يعني: في الدنيا ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحديد: ١٣، ١٥] هذه عاقبتهم في الآخرة والعياذ بالله، فلا هم الذين ربحوا آخرتهم ولا هم الذين بقيت لهم دنياهم، بل ذهبت خير الدارين عنهم.

قوله: (هذا مع أن كثيراً منهم في عافية، ما آتاهم عدو) أي مع أن كثيراً منهم ما وصل بهم الأمر إلى حد الخوف، بل هم آمنون، لكن النفاق الذي في قلوبهم ظهر، فأسرعوا إلى الأعداء، وهم لم يصلوا إليهم بعد، ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢]، يقولون: نحتاط لأمرنا؛ لأننا نخشى أن يتغلب الأعداء على المسلمين ثم يُهلكوننا، فيسارعون فيهم، أي: ينضموا إليهم؛ كالمستجير من الرمضاء بالنار، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠]، نسأل الله العافية.

قوله: (وإنما ساء ظنهم بالله) بمجرد ما سمعوا عن قدوم الجيوش انضموا إلى الأعداء، وخرجوا يستقبلونهم، وبادروا إليهم، ساء ظنهم بالله كما ساء ظن المنافقين الذين من قبلهم، الذين قال الله ـ جل وعلا ـ فيهم: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢]؛ لأنهم جاءوا إلى الرسول يعتذرون يقولون ما خرجنا معك للغزو لأننا ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح:

١١]، إلى أن قال سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، ظنوا إن الرسول لن يرجع ومن معه من المؤمنين، وأنهم سيُقتلون، فاختاروا القعود لأن فيه السلامة حسب ظنهم، لكن لما جاء الأمر على عكس ما أمّلوه وانتصر الرسول ﷺ وأصحابه جاءوا يعتذرون ويقولون: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، يظنون أنهم إذا روّجوا على الخلق يروجون على الخالق، ولكن الله فضحهم ببيان سوء ظنهم بالله عز وجل، ولو كانوا يُحسنون الظن بالله لخرجوا مع الرسول ﷺ؛ لأن الله وعد رسوله بالنصر والتأييد، لكنهم لا يصدقون ولا يثقون بوعد الله عز وجل، فكانت هذه عاقبتهم أن الله فضحهم، وأكذب اعتذارهم، وفي الآخرة لهم عاقبة السوء، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أرداكم: يعني أهلككم، فسوء الظن بالله يورث هذه العاقبة الوخيمة والعياذ بالله، وحسن الظن بالله يورث الخير إما في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة والعاقبة الحميدة.

قال رحمه الله: وأنت يا مَنْ مَنَّ الله عليك بالثبات على الإسلام، احذر أن يدخل في قلبك شيء من الريب، أو تحسين أمر هؤلاء المرتدِّين، أو أن موافقتهم للمشركين وإظهار طاعتهم رأي حسن، حذراً على الأنفس والأموال والمحارم، فإنَّ هذه الشبهة هي التي أوقعت كثيراً من الأولين والآخرين في الشرك بالله، ولم يعذرهم الله بذلك، وإلا فكثيرٌ منهم يعرفون الحق، ويعتقدونه بقلوبهم، وإنما يدينون بالشرك للأعذار الثمانية التي ذكرها الله في كتابه، فلم يعذر بها أحداً ولا ببعضها، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ **[التوبة: ٢٤].**

الشرح:

قوله: **(وأنت يا مَنْ مَنَّ الله عليك بالثبات على الإسلام، احذر أن يدخل في قلبك شيء من الريب)** أي: احذر من مصير هؤلاء، واثبت على دينك مهما كلفك الثمن، ولا تتزحزح عنه لأجل طمع دنيوي، أو لأجل خوف من عدو، فإن العاقبة للمتقين، واصبر على ما يصيبك في سبيل دينك.

قوله: (أو تحسين أمر هؤلاء المرتدِّين) لا تقل: هؤلاء معذورون، وهؤلاء خافوا على أنفسهم وعلى أولادهم فأرادوا أخذ الحيطة، أو تقل: هؤلاء مجتهدون غير متعمدين، فلا تعتذر عنهم فتكون مثلهم ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، الله - عز وجل - لم يعذرهم، فكيف أنت تلتمس لهم الأعذار؟!!

قوله: (أو أن موافقتهم للمشركين وإظهار طاعتهم رأي حسن) كأن تقول: إن هذا من قبيل أخذ الحيطة، وأخذ اليد عند العدو، أو هذا اجتهادٌ منهم أخطؤوا فيه، وهم أهل إيمان.

لا تجادل عنهم أبداً؛ بل عليك أن تعتبر بحالهم، وتحذر من أن تتصف بصفاتهم، ولا تعتذر عنهم، فربك أعلم بهم وبنياتهم.

هكذا يجب أن يكون موقف المسلم عند الفتن، ولابد له أن يُبتلى ويمتحن في هذه الدنيا، لكن النتيجة بحسب موقفه من الفتن.

قوله: (حذراً على الأنفس والأموال والمحارم)، هذا لا يبيح للإنسان أن يوافق المشركين ولو خاف على نفسه أو على أولاده، أو على ماله، فلا يوافق المشركين أبداً، بل يتمسك بدينه ويثبُت عليه إلى أن يأتي الله بالفرج، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وكلما اشتد الأمر فالفرج قريب.

وقال ﷺ: **«واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن لكل عسرٍ يسرا»**[(١)]، فإذا اشتد عليك الأمر فاعلم أن الفرج قريب، ولا تيأس من رحمة الله عز وجل.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٠٧)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤)، وابن المستفاض في القدر (ص١٣٠)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/٦١٤)، والحاكم في المستدرك (٣/٦٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: (فإنَّ هذه الشبهة هي التي أوقعت كثيراً من الأولين والآخرين في الشرك بالله)، وهي فتنة موافقة الكفار لأجل سلامة دنيا الإنسان أو أهله أو ماله، وهي شبهة من قديم الزمان، ولكنها شبهةٌ باطلة هلك بسببها خلقٌ كثير في القديم والحديث، والواجب على المسلم أن يثبت على دينه ولا يتنازل عنه.

قوله: (ولم يعذرهم الله بذلك، وإلا فكثيرٌ منهم يعرفون الحق، ويعتقدونه بقلوبهم)؛ لأن العقيدة بالقلب لا تكفي، ولابد من ظهور ذلك على الأفعال والأقوال، أما إن كان يعتقد بقلبه الحق لكنه في الظاهر يخالفه فهذا لا ينفعه ما في قلبه، والله -جل وعلا- يقول في المشركين: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وأبو طالب عم النبي ﷺ اعترف أن الرسول على حق وأن دعوته هي الحق، لكن منعه أن يتبعه على الحق الحمية على دين قومه ودين أبيه عبد المطلب، فصار من أهل النار والعياذ بالله.

حتى أبو جهل يقول للعباس ﷺ: كنا وأنتم كفرسي رهان، فاستبقنا المجد منذ حين، فلما تحاذت الركب قلتم منا نبي ... أما رضيتم أنكم ذهبتم بالحجابة والندوة والسقاية واللواء والرفادة حتى جئتمونا وزعمتم بنبي منكم[1].

هذا الذي حملهم على الكفر والعياذ بالله، وإلا فهم يعرفون أنه على حق.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٦٠)، من طريق ابنِ لهيعة عن أبي الأسود عن عروة، قال الهيثمي في زوائده (٦/٧١): «رواه الطبراني مرسلاً، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وحديثه حسن» اهـ. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/١٠٤).

قوله: **(وإنما يدينون بالشرك للأعذار الثمانية التي ذكرها الله في كتابه، فلم يعذر بها أحداً ولا ببعضها، فقال:** ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ **)**.

فذكر ثمانية أشياء قد تحمل بعض الناس على ترك الهجرة مع المسلمين، فيبقى في بلده مقيماً على ماله، وبيته، وأولاده، وتجارته، وزوجته ولا يهاجر، فالله ـ جل وعلا ـ هدّد من كانت هذه الأشياء أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وهو انتصار الحق وظهوره، وهلاك أعداء الرسول ﷺ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله عز وجل، لا يهديهم عقوبةً لهم، فالله لا يضع الهداية إلا فيمن يستحقها، وهو الذي يرغب في الهداية ويطلبها، أما الذي لا يرغب في الهداية ولا يريدها فهذا يعاقبه الله بالحرمان؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فجعل الفسق علةً لعدم هداية الله لهم؛ لأنهم خارجون عن طاعة الله عز وجل.

وفي الآية دليل على أنه لا يُلام الإنسان على محبة هذه الأشياء، لكنه إذا قدّم محبتها على محبة الله ورسوله فإنه يُلام.

الدليل السابع عشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ **[محمد: ٢٥ - ٢٨]، فذكر تعالى عن المرتدين على أدبارهم أنهم من بعد ما تبين لهم الهدى ارتدّوا على علم، ولم ينفعهم علمهم بالحق مع الردة، وغرّهم الشيطان بتسويله وتزيين ما ارتكبوه من الردّة.**

وهكذا حال هؤلاء المرتدين في هذه الفتنة، غرّهم الشيطان وأوهمهم أنّ الخوف عذر لهم في الردّة، وأنهم بمعرفة الحق ومحبّته والشهادة به لا يضرُّهم ما فعلوه، ونسوا أنّ كثيراً من المشركين يعرفون الحق ويحبونه ويشهدون به، ولكن يتركون متابعته والعمل به محبة للدنيا، وخوفاً على الأنفس، والأموال، والمآكل، والرئاسات.

الشرح:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ يعني: ارتدوا عن الدين، فالارتداد عن الدين ارتداد على الأدبار، كان يمشي على وجهه متجهاً إلى الجنة فارتدّ على دبره متجهاً إلى النار والعياذ بالله، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ أي: ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بعد ما تبين لهم الهدى، وعرفوه وهذا فيه دليل على أن الجاهل يُعذر إلى أن يزول جهله.

قوله: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ إبليس الذي هو عدوهم هو الذي قادهم إلى هذا الارتداد، فأطاعوا عدوهم ليُخرجهم من الإسلام إلى الكفر، ومن النور إلى الظلمات، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وهذا في كل زمانٍ ومكان، فإن شياطين الإنس والجن يحاولون صرف المسلمين عن دينهم، ويحاولون ردّة المسلمين عن دينهم بما يقيمون من الشُبهات والمغريات والتهديدات هذا دائماً وأبداً، وليس هذا خاصاً في الذين نزلت فيهم الآية ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ ﴾ زيّن لهم الردّة ﴿ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ حسن لهم ما هم عليه وزينه في قلوبهم، ووعدهم بالوعود الحسنة، والنتائج الطيبة، حتى يرغبهم في الردة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ أي: أن ما حصل لهم من الردّة إنما هو بسبب أنهم ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾، ومن كره ما أنزل الله فقد ارتدّ عن الدين؛ كما في أول السورة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٩] فالذي يكره ما أنزل الله يكون مرتداً والعياذ بالله، فهم أطاعوا المرتدين الذين كرهوا ما أنزل الله، وقالوا: ﴿ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ لم يطيعوهم فعلاً ولكن وعدوهم، وأيضاً ليست طاعة مطلقة في كل الأمر، بل في بعض الأمر، ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴾ يعلم ما في قلوبهم وما يتناجون به بينهم ويسرونه عن المسلمين.

ثم ذكر عاقبتهم فقال: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ إذا قبضتهم ملائكة الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقوله: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وهنا يقول: ﴿ فَكَيْفَ ﴾ هذا تهويل لحالهم، كيف لو رأيت حالتهم عند الموت والاحتضار ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ أي: الملائكة ﴿ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ بالمقارع والآلات التي يضربونهم بها من أمام ومن خلف، مضارب شديدة والعياذ بالله، وهذا شيءٌ لا نشعر به نحن، يكون عندهم من يحضر موتهم ولكن لا يدري ما الذي يجري لهم مع الملائكة؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؛ فالمحتضر يرى ما لا نرى، ويحضره ما لا يحضرنا، لأنه دخل في عالمٍ آخر، وحضرته الملائكة فيراهم ونحن لا نراهم، فالمُحتضر دخل في عالم الغيب وأول الآخرة، وجاءته ملائكة الموت، فإذا كان قبل موته من فريق المنافقين والمرتدين فإنه زيادةً على استخراج روحه بشدة يضربونه من الأمام ومن القفا والعياذ بالله.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ يعني: باسطوا أيديهم بالضرب يقولون لهم: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي: أرواحكم ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣]. هذا يحصل عند وفاة المرتد والكافر والمنافق والعياذ بالله، يموت أسوأ ميتة، وتتفرق روحه في جسده ويصعب استخراجها جداً ويتألم بها، وتُخرج على صفةٍ مفزعة والعياذ بالله.

هذه عاقبة المرتدين عن دينهم، وما أقرب هذه العاقبة؛ ما أقرب الموت وأسرعه، وهؤلاء المرتدون يواجهون عنده هذه العاقبة السيئة، وهذا أشد من أذى الكفار للمسلم في الدنيا، فإن ما يلاقيه المنافق والمرتد عند الموت أشد مما يناله في الدنيا وهو على قيد الحياة لو قُدر له أن يثبت على دينه، فيجب المقارنة بين هذا وذاك.

قوله: (فذكر تعالى عن المرتدين على أدبارهم أنهم من بعد ما تبين لهم الهدى ارتدّوا على علم) لم يرتدوا عن جهل، والعلم يحصل ببلوغ القرآن وبلوغ السنة، فمن سمع القرآن وسمع السنة فإنه صار عالماً بدينه جملة، وإن لم يكن عالماً بالتفاصيل، لكنه علم الحق من الباطل ببلوغ القرآن والسنة.

قوله: (ولم ينفعهم علمهم بالحق مع الردة)، فالعالم لا يغتر بعلمه ويقول: أنا لا يمكن أن أنحرف لأنني على علم، بل عليه أن يخشى من الردّة والزيغ، وإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ كان يدعو ويقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ومحمد ﷺ كان يدعو ويقول: **«يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»**[1]، فالمسلم لا يأمن على نفسه حتى ولو كان عالماً، فلا يقول: أنا لا يمكن أن أنخدع لأنني عالم، بل عليه أن يخشى على دينه.

قوله: (وهكذا حال هؤلاء المرتدين في هذه الفتنة) التي جرت في وقت المؤلف من غزو الجيوش لبلاد المسلمين، وما جرى على المسلمين من القتل والتعذيب، وسلب الأموال، وانتهاك المحارم، وتخريب الديار، كل هذا من أجل الدين، فالجيوش هذه ما

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد في المسند (٣/١١٢، ٢٥٧)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٣٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٢٥)، وأبو يعلى في مسنده (٦/٣٥٩) وابن أبي عاصم في السنة (١/١٠١)، والطبراني في الكبير (٧٥٩)، والحاكم في المستدرك (١/٧٠٧)، والدارقطني في الصفات (ص٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٤٧٥) من حديث أنس ﷺ. قال أبو عيسى: «وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وهذا حديث حسن، وهكذا روى غير واحد عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس، وروى بعضهم عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح» اهـ.

جاءت تريد دنيا مغرية ؛ لأن بلاد نجد ليس فيها دنيا ، وإنما جاءوا يريدون تدمير العقيدة وتدمير الدعوة.

قوله : (غرّهم الشيطان وأوهمهم أنّ الخوف عذر لهم في الردّة) الخوف ليس بعذر ، لكن الإكراه يكون عذراً في موافقتهم بشرط أن يكون في الظاهر لا في الباطن ، وأما الخوف فليس عذراً.

قوله : (وأنهم بمعرفة الحق ومحبّته والشهادة به لا يضرُّهم ما فعلوه) غرّهم علمهم أيضاً وزكوا أنفسهم ، وأمنوا على دينهم وقالوا : ليس علينا خطر ، نحن نعرف الإسلام ونحبه ونشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله فلا يصرفوننا عنه.

قوله : (نسوا أنّ كثيراً من المشركين يعرفون الحق ويحبونه ويشهدون به) هذا كما سبق وذكرنا نماذج من قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، وقول أبي طالب ، وقول أبي جهل ، واليهود والنصارى ، كلهم يعرفون الحق ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦].

فهم لم يكفروا بمحمد ﷺ لأنهم يجهلون أنه نبي الله ، بل يعلمون أنه نبي الله ، وهو موجود عندهم في التوراة والإنجيل وأخبار الرسل السابقة ، والرسول ﷺ على جادة الأنبياء ما اختلف عنها عليه الصلاة والسلام ، ولم يأت بشيء جديد لم تأت به الرسل حتى يقولوا خالف الرسل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩] ، فهم يعلمون هذا ، لكن الذي منعهم من اتباعه هو الحسد ؛ لأنهم يريدون أن تستمر النبوة في بني إسرائيل ، والآن صارت النبوة في بني إسماعيل ، قال

تعالى: ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤] هذا الذي منعهم: الحسد والكِبر من بعد ما تبين لهم الحق.

فهم يعلمون أنه نبي لكن لا يتبعونه لغرضٍ من الأغراض: إما لحمية على دينهم، وإما لطمعٍ دنيوي يخشون أنه يفوت، أو لرئاسة يخشون ضياعها؛ كما حصل من هرقل عظيم الروم لما جاءه كتاب رسول الله ﷺ وكان نصرانياً، فجمع النصارى واستدعى من في الشام من العرب القادمين من عند رسول الله ﷺ بقيادة أبي سفيان، وكان في ذلك الوقت كافراً، فسألهم هرقل عن محمد ﷺ فأخبروه، ثم قال لأبي سفيان: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وكذلك هم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد

كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة كتاب النبي ﷺ كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه يخاف ملك بني الأصفر.

ثم إن هرقل بعد ذلك جمع عظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلّقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غُلّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من إيمانهم قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1].

فترك الحق وهو يعلمه ـ والعياذ بالله ـ ويعرفه، وقال: فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد صدق الله وعده، وملك المسلمون بلاد الشام ومصر والعراق، وبلاد فارس، والروم.

قوله: (ولكن يتركون متابعته والعمل به محبة للدنيا، وخوفاً على الأنفس والأموال، والمآكل والرئاسات)، هذا هو الذي يصرف كثيراً من الناس عن قبول الحق بعد معرفته، وهذه آفة عظيمة وابتلاء وامتحان أيضاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

قال رحمه الله: ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦] فأخبر تعالى أن سبب ما جرى عليهم من الردّة وتسويل الشيطان، وإملائه لهم، هو قولهم للذين كرهوا ما نزّل الله: سنطيعكم في بعض الأمر.

فإذا كان من وعد المشركين الكارهين لما أنزل الله بطاعتهم في بعض الأمر كافراً، وإن لم يفعل ما وعدهم به، فكيف بمن وافق المشركين الكارهين لما أنزل الله من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه من الأنداد والطواغيت والأموات، وأظهر أنهم على هدى، وأن أهل التوحيد مخطئون في قتالهم، وأن الصواب في مسالمتهم، والدخول في دينهم الباطل؟!

فهؤلاء أولى بالردّة من أولئك الذين وعدوا المشركين بطاعتهم في بعض الأمر، ثم أخبر تعالى عن حالهم الفظيع عند الموت، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر الفظيع عند الوفاة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

الشرح:

هؤلاء الذين قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ هم وعدوهم وعداً، وأيضاً ما وعدوهم بالطاعة الكاملة، بل ببعض الطاعة، ومع هذا وصفهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ [محمد: ٢٥].

قوله: (وأظهر أنهم على هدى، وأن أهل التوحيد مخطئون في قتالهم)، أي: أظهر هذا المرتد للمشركين الغازين أنهم على هدى، وأن المسلمين مخطئون، وصاروا يقولون: جهاد المسلمين للكفار خطأ وعدوان، ودين الإسلام ليس بدين قتال، بل هو دين تسامح ودين محبة.

ونحن نقول: دين الإسلام لا يدعو لقتال الناس من أجل الطمع في دنياهم أو أموالهم، إنما يقاتلهم لإزالة الشرك، وعبادة غير الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] هذا هو الغرض من الجهاد أن يكون الدين كله لله؛ لأن الله خلق الخلق لعبادته ولم يخلقهم لعبادة الأحجار والأشجار والطواغيت والقبور، فمن أبى أن يعبد الله بعد دعوته إلى الله، وصار ينشر الشرك ويدعو إليه، فلابد من قتاله لأجل إزالة شره؛ لأنه سيصبح داعية إلى الشرك وينشر الشرك في الأرض، فالغرض من الجهاد كفّ شر الكفار، وأن تكون كلمة الله هي العليا، ومنع الكفار من صد الناس عن الدخول في الإسلام.

أما هؤلاء فيقولون: إن القتال في الإسلام خطأ؛ لأن الإسلام ليس بدين قتال، بل هو دين مسالمة، ودين محبة، ودين تسامح.

إلى متى يكون التسامح، وهم لا يتسامحون معنا، ولا يرضون بديننا وهو حق، فكيف نرضى بدينهم وهو باطل وكفر؟!!

قوله: (وأن الصواب في مسالمتهم) وهذا ما يُنادى به الآن أمثال هؤلاء أن الإنسانية أخوة، ولا بد من حرية الأديان كلٌ على دينه، ولا يَصْدُقُون في هذا، فهم لا يريدون الإسلام، ولا أن يكون مع الأديان، إنما يريدون القضاء عليه، لكن يأتون بهذا

الخداع ويقولون: كلٌّ يبقى على دينه، وحرية الأديان، وحرية العقيدة، ولا إكراه في الدين، ولا .. ولا، ويروجون لهذه الشعارات ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يصدقون في هذا القول مع أنه باطل، فيريدون القضاء على الإسلام وطمس مؤسساته ومنابعه، ويسمونها: منابع الإرهاب.

قوله: (فهؤلاء أولى بالردّة من أولئك الذي وعدوا المشركين بطاعتهم في بعض الأمر)، الذين يقولون هذه المقالات أشد من الذين نزل فيهم قوله تعالى لما قالوا للكفار: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾، ومع هذا حكم الله ـ عز وجل ـ عليهم بالردّة بسبب قولهم هذا؛ لأنهم وعدوهم هذا الوعد.

قوله: ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من الكفر وطاعة الكفار، ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ بالتوحيد، كرهوا أن يكون المسلم مع المسلمين، يوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله.

قال رحمه الله: ولا يستريب مسلم أن اتّباع المشركين، والدخول في جملتهم، والشهادة أنهم على حق، ومعاونتهم على زوال التوحيد وأهله، ونصره القباب والقحاب واللواط، من اتّباع ما يسخط الله، وكراهة رضوانه، وإن دعوا أن ذلك لأجل الخوف، فإن الله ما عذر أهل الردّة بالخوف من المشركين، بل نهى عن خوفهم، فأين هذا ممن يقول: ما جرى منّا شيء ونحن على ديننا؟!!

الشرح:

ما ذكره الشيخ هو الذي يجري في تلك البلاد التي جاءت منها هذه الجيوش، أنها بلاد شرك لما فيها من القباب التي على القبور والتي تُعبد من دون الله، ولما فيها من فساد الأخلاق وارتكاب الزنا واللواط، وهذا شيء يرتكب علانية فيها ولا يُمنع، ويقولون: الناس أحرار، ونحن لا نجبر الناس، كلٌّ يتبع هواه، ويسمون هذا الديمقراطية، أن الناس يُتركون على ما هم عليه، ولا يُعترض على أحد، هذه هي الديمقراطية التي ينادون بها اليوم.

وهناك من يشهد الآن أن المشركين على حق، ويستدل على ذلك بتقدمهم في الصناعة والحضارة، ويقولون: ما حصلوا على هذا إلا لأنهم على حق، والمسلمون ما تأخروا في هذا المضمار إلا بسبب الدين، هو الذي أخّرهم، وهو رجعية وقيود وأغلال .. وإلى آخره، وهذا شيءٌ لا يخفى على أحد مما يكتبونه الآن ويظهرونه علانية، ويذيعونه وينشرونه في الفضائيات وفي غيرها.

فالأمر جد خطير، والمحنة والفتنة كبيرة اليوم جداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فعلى المسلم أن يتمسك بدينه، وأن يحذر ويُحذّر من هذه الفتن.

قوله: (وإن دعوا أن ذلك لأجل الخوف) مجرد الخوف لا يجيز التنازل عن شيء من الدين، إنما الذي يُرخص فيه دفع الإكراه بقدر ما يدفع عنه الضرر فقط، ويكون ذلك ظاهراً لا في قلبه.

قوله: (فإن الله ما عذر أهل الردّة بالخوف من المشركين، بل نهى عن خوفهم فأين هذا ممن يقول: ما جرى منّا شيء ونحن على ديننا) يؤيدون الجيوش الغازية، ويحملونهم، ويقاتلون معهم، ويدلونهم على عورات المسلمين، ويقولون: نحن ما زلنا على ديننا!

هذا من الانتكاس والعياذ بالله، أين الدين مع هذه الأمور؟!! فالذي على دينه لا يعمل هذه الأعمال.

الدليل الثامن عشر: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ **[الحشر: ١١].**

فعقد تعالى الأخوّة بين المنافقين والكفار، وأخبر أنهم يقولون لهم في السر: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾**، أي: لئن غلبكم محمد ﷺ وأخرجكم من بلادكم** ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾**، أي: لا نسمع من أحدٍ فيكم قولاً، ولا نعطي فيكم طاعة.** ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾**، أي: إن قاتلكم محمد ﷺ لننصرنكم ونكون معكم، ثم شهد تعالى أنهم كاذبون في هذا القول.**

فإذا كان وعد المشركين في السر بالدخول معهم، ونصرهم، والخروج معهم إن أجلوا، نفاقاً وكفراً، وإن كان كذباً، فكيف بمن أظهر ذلك صادقاً، وقدم عليهم، ودخل في طاعتهم، ودعا إليها، ونصرهم وانقاد لهم، وصار من جملتهم، وأعانهم بالمال والرأي؟! هذا مع أن المنافقين لم يفعلوا ذلك إلا خوفاً من الدوائر؛ كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ **[المائدة: ٥٢].**

الشرح:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن

نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾، هذا إخبارٌ من الله ـ جل وعلا ـ لنبيه ﷺ بعد غزوة بني النضير لما نقض بنو النضير عهدهم مع الرسول ﷺ، فحاصرهم ﷺ حتى استسلموا على الجلاء من المدينة، وترك أموالهم إلا ما خفّ منها، وصارت غنيمةً للمسلمين.

واليهود لا يُستغرب منهم الخيانة ونقض العهود؛ لأن هذا هو المعروف عنهم ـ إلا من شاء الله منهم ـ لكن المستغرب أن هؤلاء الذين يدّعون الإسلام، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وينتسبون إلى جماعة المسلمين، كيف انضموا إلى الكفار عندما حدثت هذه الحادثة؟ لا لشيء إلا لأنهم يحبون الكفار، ويُبغضون الرسول ﷺ وأصحابه ويُبغضون الإسلام.

الله ـ جل وعلا ـ أراد أن يُظهر ما في قلوبهم ويفضحهم، وإلا فهم آمنون ولم يأتهم خوف، وليس لهم ما يبررون به موقفهم، إلاّ أنهم ليس في قلوبهم وفاء، ويفرحون بمثل هذه النوازل لينتقموا من المؤمنين، وهكذا الحوادث تميز المؤمن الصادق في إيمانه من المنافق.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: قد رأيت يا رسول الله، وهذا استفهام تقرير ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، أو أظهروا الخير وأبطنوا الشر، والنفاق: هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، فيكون باطن الإنسان مخالفاً لظاهره، وهذا النفاق داءٌ وبيل، وينقسم إلى قسمين:

الأول: نفاقٌ اعتقادي، وهو كفرٌ بالله ـ عز وجل ـ لا يصدر من مؤمن مثل الذي حصل من المنافقين في هذه الآية.

الثاني: نفاقٌ عملي، وهذا يصدر من بعض المؤمنين بأن يتصف بصفة من صفات المنافقين، وهو لا يُخرج من الملة، لكنه يُنقص الإيمان.

أما النفاقُ الاعتقادي فإنه يُخرج من الملة، وصاحبه كافر، لكن ربما يقول قائل: إذا كان كافراً فكيف يتركه الرسول ﷺ؟ فنقول: الرسول ﷺ عاملهم بالظاهر وَوَكل سرائرهم إلى الله جل وعلا، فمن ادّعى الإسلام ونطق بالشهادتين وتظاهر بالإسلام نقبل منه، ولا نبحث عن عقيدته التي في قلبه، ونكله إلى الله سبحانه وتعالى، فهم مسلمون في الظاهر، ونحن لم نؤمر بأن نبحث عما في القلوب؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، يعني: أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وهذا إسلامٌ معيشي وليس إسلاماً دينياً، فالمنافق يُسمى مسلماً بحسب ظاهره، أما معرفة أنه مسلم في الباطن فهذا إلى الله جل وعلا.

قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ سمى الكفار إخواناً لهم، وهذا فيه أن من وعد الكفار بأنه يناصرهم وأنه يكون معهم فإنه يرتد، ويكون من إخوان الكفار؛ لأن الله حكم على هؤلاء بالكفر وسماهم إخواناً لليهود؛ لأن الله قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من اليهود، وقال: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لأنه ليس كل أهل الكتاب كفاراً بل منهم مسلمون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وإنما بعض أهل الكتاب، فلا يقال: إن أهل الكتاب كلهم كفار، فقبل البعثة كان فيهم مؤمنون صادقون، فاستجابوا للرسول ﷺ بعد البعثة واستمروا على إسلامهم وإيمانهم، ومن أبى منهم أن يطيع الرسول صار كافراً؛ لأن الله ـ عز

وجل ـ لا يقبل إلا دين الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ، أما الدين السابق فقد انتهى ونُسخ.

قوله: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إما أنهم كفار من الأصل، أو أنهم كفروا لما بُعث الرسول ﷺ فلم يؤمنوا به، ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾؛ لأنكم إخواننا وخاصتنا، فلا نطيع فيكم أحداً أبداً لا الرسول ولا غير الرسول، ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ وإن قاتلكم الرسول نكون معكم ونقاتل معكم.

وهذه وعود منهم، فكفروا بمجرد الوعود وهم لم يفعلوا، وصاروا إخوان اليهود ـ والعياذ بالله ـ بمجرد القول والوعد، لأن الله قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فهم كاذبون في قرارة أنفسهم، ومع هذا حكم عليهم بالكفر بما قالوه ومالؤوا عليه اليهود.

فدلّ على أن الردّة تكون بالقول كما تكون بالاعتقاد في القلب، فالذين يقولون: إن الردّة لا تكون إلا بالاعتقاد بالقلب ـ وهم المرجئة[1] ـ قد أخطؤوا، والله ـ عز وجل ـ حكم على هؤلاء أنهم كفار، وأنهم إخوان اليهود بمجرد قولهم، مع أن الله شهد

---

(١) سموا مرجئة لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، والإرجاء بمعنى التأخير، يقال: أرجيت الشيء إذا أخرته، وهم ثلاثة أصناف: صنف قالوا بالإرجاء في الإيمان وما يُقدَّر على مذاهب القدرية المعتزلة، وصنف قالوا بالإرجاء بالإيمان وبالجبر في الأعمال على مذهب جهم ابن صفوان، فهم إذاً من جملة الجهمية، والصنف الثالث منهم خارجون عن الجبر والقدرية، وهم فيما بينهم خمس فرق: اليونسية، والغسانية، والثوبانية، والتومنية، والمريسية. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٩٠)، والملل والنحل (١/ ١٣٩).

عليهم أنهم كاذبون، فهم لم يقصدوا ما قالوا، وإنما قالوا هذا من باب المصانعة لأعداء الله عز وجل.

فلهذا يجب أن يحذر الإنسان من الكلام الذي يُخرجه من الدين، وإن لم يفعل، فكيف إذا فعل ونفّذ؟

قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ وهذا وقع، لما أخرج اليهود من المدينة لم يخرج معهم المنافقون، ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ لما حاصرهم الرسول ﷺ لم ينضموا إلى اليهود ليدافعوا عنهم، إنما تخلوا عنهم؛ لأنهم جبناء لا يقدرون على لقاء المسلمين أبداً؛ لأن الجُبن قد خلع قلوبهم والعياذ بالله، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾، لو تظاهروا بالنُصرة وجاءوا معهم إذا بدأت الملحمة فرّوا وولوا الأدبار؛ لأنهم جُبناء لا يستمرون في القتال، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، فهم كذبوا في مواعيدهم.

والشاهد من الآية واضح: أن من مالأ الكفار على المسلمين، ووعدهم بالنُصرة والانضمام إليهم، فإنه يرتد عن الإسلام بمجرد الوعود، فكيف بالذي ينفذ ويفعل ما يقول؟

وهذه الآية يؤخذ منها أن هؤلاء الذين في وقت الشيخ ـ رحمه الله ـ هم من هذا النوع والعياذ بالله؛ لأنهم ذهبوا إلى أعداء التوحيد، وتصالحوا معهم على أن يغزوا بلاد المسلمين وأن يساعدوهم، ولم يكتفوا بالقول، بل هم أشد من المنافقين؛ لأنهم نفّذوا وعدهم لأعداء التوحيد، وصاروا يقاتلون معهم، ويحملونهم، ويُدلونهم على الطريق، فدلّ على ردّتهم بهذا العمل والعياذ بالله.

قوله: (فعقد تعالى الأخوّة بين المنافقين والكفار) وهذا كافٍ في الحكم بردّتهم، وخروجهم من الدين.

قوله: (وأخبر أنهم يقولون لهم في السر: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾) فهم لا يُظهرون قولهم هذا؛ لأنهم جُبناء، ولا يصرِّحون بما يعتقدون لما فيهم من الجُبن والخِداع، فكيف علم الرسول ﷺ بذلك وهو سر؟ الجواب: لأن الله ـ جل وعلا ـ أطلعه على هذا وأخبره به.

قوله: (ثم شهد تعالى أنهم كاذبون في هذا القول) فلم ينصروهم ولم يكونوا معهم لما قاتلهم النبي ﷺ، ولم يخرجوا معهم لما أخرجهم.

قوله: (فإذا كان وعد المشركين في السر بالدخول معهم، ونصرهم، والخروج معهم إن أجلوا، نفاقاً وكفراً وإن كان كذباً؛ فكيف بمن أظهر ذلك صادقاً، وقدم عليهم، ودخل في طاعتهم، ودعا إليها؟) يقصد هؤلاء الذين في وقت حملة الأعداء على بلاد التوحيد، أنهم ذهبوا إلى الأعداء ومالؤوهم، وزينوا لهم الغزو، وسهلوا لهم الطرق، وحملوهم، فهؤلاء نفّذوا وعدهم، والتنفيذ أشد من القول المجرد، فإذا كان الله حكم بالردّة بمجرد القول بدون فعل، فكيف بالذي قال ونفّذ؟!

قوله: (هذا مع أن المنافقين لم يفعلوا ذلك إلا خوفاً من الدوائر) ومجرد الخوف لا يُبرر أن يتنازل المسلم عن دينه أبداً، أما إن كان مُكرهاً فإنه يتظاهر ويعطيهم ما يريدون في الظاهر، ويبقى في الباطن على دينه وعقيدته؛ لأن الكفار لا يطّلعون على القلب، وليس لهم تصرف في القلوب، وليس لهم إلا الظاهر.

قوله: (كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾) فهذا ما يتعلل به المنافقون، أنهم يفعلون هذا من أجل أن يأمنوا على أنفسهم لو أن المسلمين انهزموا وانتصر الكفار، ويصير لهم يد عند الكفار؛ ذلك لأنهم يسيئون الظن بالله عز وجل؛ كما قال ـ جل وعلا ـ في إخوانهم: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن

لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

قال رحمه الله: وهكذا حال كثير من المرتدين في هذه الفتنة، فإنّ عذر كثير منهم هو هذا العذر الذي ذكره الله عن الذين في قلوبهم مرض ولم يعذرهم به. قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ **[المائدة: ٥٢، ٥٣]، ثم قال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **[المائدة: ٥٤].**

الشرح:

قوله: **(وهكذا حال كثير من المرتدين في هذه الفتنة)** يعني: الفتنة التي حدثت في الدرعية في وقت الشيخ رحمه الله، لما هجمت الجيوش العظيمة على المسلمين من غير ذنب إلا عداوةً للتوحيد، وعداوة للعقيدة الصحيحة، قال المنافقون في زمان هذه الفتنة ماقاله المنافقون لليهود في زمن النبي ﷺ، أليس هذا ردّة؟! الجواب: لا شك أن هذا ردة والعياذ بالله.

قوله: (فإنّ عذر كثير منهم هو هذا العذر الذي ذكره الله عن الذين في قلوبهم مرض ولم يعذرهم به) وهم المنافقون الذين في عهد النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾، هذا وعدٌ من الله - جل وعلا - للمؤمنين؛ لأن **(عسى)** من الله

واجبة ؛ كما يقول المفسرون[1] ، ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ وهو نصر المسلمين على الكافرين ، ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ بأن يوقع في الكفار ما يوقع من العقوبات ، ﴿فَيُصْبِحُواْ ﴾ فيصبح المنافقون ﴿ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أضمروه في قلوبهم ﴿نَٰدِمِينَ ﴾ ولا ينفعهم الندم ، وقد خاب ظنّهم ، وانقلب الأمر عليهم ، ونصر الله المسلمين ، وفتح لهم ، وانزاح الكفار والمشركون ، وبقي المنافقون معلقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ولم ينفعهم الندم والعياذ بالله.

فالمؤمن يصدق مع الله في السراء والضراء ، وفي الشدة وفي الرخاء ، مهما كلّفه الأمر ، وإن ضاعت عليه الدنيا ، فإن الآخرة لا تضيع عليه ، أما إن تنازل عن دينه لأجل الدنيا ، فلن ينال الدنيا ويُحرم من الآخرة ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] نسأل الله العافية ، والدنيا مداولات : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٤٠]. والباطل وإن أديل لن يدوم بل يزول ويعود الحق ﴿ ٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، وحينئذ يندم من تعلق بالباطل وتقر عين من تعلق بالحق ﴿ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٤- ٦].

---

(١) انظر : تفسير الطبري (١١/ ١٣) ، (١١/ ١٤) ، وزاد المسير (٥/ ١١) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٢) ، (٣/ ٣٩٨) ، وتفسير القرطبي (٣/ ٣٩) ، والدر المنثور (٤/ ٢٧٧ ، ٢٧٩) ، وفتح القدير (٢/ ٥٠) ، وأضواء البيان (١/ ٤١٤).

قولـــه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فيتعجب المسلمون من مصير هؤلاء حينما ينكشف أمرهم ويُهزمون ويُخسؤون، وتحبط أعمالهم ويصبحون خاسرين مع أنهم كانوا يحلفون للمسلمين أنهم معهم في السراء والضراء.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، هذا تابع للدليل الذي قبله والردّة عن الدين هي الرجوع عن الدين بارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، فأنتم لا تضرون الدين وإنما تضرون أنفسكم، والله -جل وعلا- لا يضيع دينه إذا تخليتم عنه، فإن الله يأتي له بمن ينصره، فلا خوف على الدين إنما الخوف علينا نحن.

فالله سبحانه ناصر دينه لا محالة، فإن تركه قوم أتى الله بقومٍ آخرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وهنا قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ هذا فيه وصفٌ بأن الله -جل وعلا- يحب المؤمنين، وهذه صفة من صفاته سبحانه وتعالى، فكما أنه سبحانه يُبغض الكافرين فإنه يحب المؤمنين، محبةً تليق بجلاله، ليست كمحبة المخلوق، بل هي كسائر صفات الله جل وعلا.

قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ هذه صفتهم أنهم يحبون الله جل وعلا، ومن أحبَّ الله أحبّه الله، أما المنافقون فإنهم لا يحبون الله جل وعلا، فلا يحبهم الله، وكذلك الكفار لا يحبون الله، فالله لا يحبهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]،

وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] فالله يُبغض الكافرين والمنافقين، ويحب المؤمنين والمتقين والمحسنين.

قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يلينون الجانب لإخوانهم المؤمنين ويلطفون بهم، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أقوياء على الكافرين، لا يبدون لهم الذلة واللين والتملق أبداً، إنما يُبدون لهم العزة والقوة؛ لئلا يطمع الكفار في المسلمين، فإنهم إنما يطمعون حين يكون المسلمون أذلة أمام الكافرين.

وقد كان الكفار يأسرون من يأسرون من الصحابة ومن المسلمين الصادقين الإيمان فلا يتنازل الصحابة عن دينهم أبداً، وإن قتلوا وإن حرّقوا وإن قطّعوا.

فهذه الآية فيها بيان لبعض صفات المؤمنين:

الصفة الأولى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، فمن أحبَّ الله أحبّه الله.

والصفة الثانية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وهذه كما في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أما أهل النفاق فعلى العكس رحماء على الكفار أشداء على المؤمنين.

والصفة الثالثة: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا يقاتلون من أجل طمع الدنيا، أو لأجل الحمية والعصبية، أو لأجل الطمع في البلاد، وإنما يقاتلون في سبيل الله، وقد سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل حميّة، والرجل يقاتل من أجل المغنم، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

فالله ـ جل وعلا ـ لا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه يعلم الضمائر والسرائر، وما في النفوس وما في القلوب، ويعامل العباد بموجب ذلك.

الصفة الرابعة: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ فلا يلتفتون لمن يومهم من الناس ويقول لهم: أنتم تُفرطون بأنفسكم وأموالكم وأولادكم بقتالكم الكفار، اتركوا قتالهم فهو خير لكم، وعيشوا في بلدكم، والإسلام دين مسالمة ودين محبة وليس دين قتال وولاء وبراء.

ثم قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ يعني: ليس مانالـه المسلمون بحولهم ولا بقوتهم وإنما هو فضل الله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهذا التثبيت وهذه القوة والشجاعة والصرامة في الحق فضلٌ من الله يعطيه من يشاء، لكن بسببٍ من العبد، فإذا كان العبد عنده عزم وقوة إيمان فالله ـ جل وعلا ـ يتفضل عليه ويؤيده وينصره.

قاله رحمه الله: فأخبر تعالى أنه لابد عند وجود المرتدين من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين، ووصفهم بالذلّة والتواضع للمؤمنين، والعزّة والغلظة والشدة على الكافرين، بضد من كان تواضعه وذلّه ولينه لعبّاد القباب، وأهل القحاب واللواط، وعزّته وغلظته على أهل التوحيد والإخلاص؛ فكفى بهذا دليلاً على كفر من وافقهم، وإن ادّعى أنه خائف، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا بضد من يترك الصدق والجهاد خوفاً من المشركين.

ثم قال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]، أي: في توحيده، صابرين على ذلك ابتغاء وجه ربهم؛ لتكون كلمة الله هي العليا، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، أي: لا يبالون بمن لامهم وآذاهم في دينهم، بل يمضون على دينهم، يجاهدون فيه غير ملتفتين للوم أحد من الخلق ولا لسخطه ولا لرضاه، إنما همتهم وغاية مطلوبهم رضى سيدهم ومعبودهم، والهرب من سخطه.

وهذا بخلاف من كانت همته وغاية مطلوبه رضى عبّاد القباب، وأهل القحاب واللواط، ورجائهم، والهرب مما يسخطهم، فإن هذا غاية الضلال والخذلان.

الشرح:

قوله: **(فأخبر تعالى أنه لابد عند وجود المرتدين من وجود المحبين المحبوبين المجاهدين)** هذا دليل على أن الإسلام لا يتركه الله عز وجل، فإذا وُجد من يعاديه ويريد دفنه والقضاء عليه، فإن الله يُوجد من ينصر الإسلام ويؤيده ويحميه، هذا وعدٌ من الله جل وعلا؛ لأن الله تكفل بحفظ هذا الدين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا**

يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[1]، فالله لا يضيع دينه أبداً، لكن الخشية علينا نحن أن نضيع، إذا تركنا الدين وأفلتت أيدينا منه، أما الإسلام فليس عليه خوف؛ لأن الذي أنزله تكفل بحفظه، وتكفل أن يأتي بمن ينصره ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾ في المستقبل؛ لأن الفاء هنا للتسويف وهو الاستقبال القريب: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وقد صدق وعد الله.

وخير المثال على ذلك قصة أبي بكر الصديق وأصحابه رضي الله عنهم، أتى الله بهم فقمعوا أهل الردّة، وثبّت الله بهم الإسلام، واستقر بهم الدين[2].

كذلك ما حصل في الدرعية لما حصلت رجفة، وحصل قتل وتشريد وتخريب، فلما فارقت الجيوش الدرعية عادت الدعوة وعاد الدين كما كان، واجتمعت كلمة المسلمين وبايعوا أميرهم تركي بن عبد الله آل سعود رحمه الله، وعادت الدولة كما كانت، وهذا وعد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين المحبين لله، المحبوبين من الله، المجاهدين في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ، وقد أخرجاه من حديث جابر وثوبان والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهم ـ بألفاظ متقاربة.

(٢) أخرج البخاري (١٤٠٠، ١٤٥٦)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: «لما توفي رسول الله ﷺ واستُخْلِف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق».

قوله: (ووصفهم بالذلّة والتواضع للمؤمنين، والعزّة والغلظة والشدة على الكافرين) امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

قوله: (بضد من كان تواضعه وذلّه ولينه لعبّاد القباب، وأهل القحاب واللواط)؛ كما هي حالة هؤلاء الغُزاة في بلادهم، فهي بلاد شرك لما فيها من القبور والأضرحة التي تُعبد، وفيها دور البغاء مفتوحة، وفيها تُشرب الخمور علانية، وفيها الصوفية المنحرفة المخالفة للدين، وفيها من كل بلاء ما الله به عليم، وهؤلاء الغزاة المعتدون لم يغيروا ما في بلادهم من الشرك والبدع وفعل الفواحش، بل جاءوا يريدون القضاء على دعوة التوحيد بزعمهم، ولكن لم يضروا دعوة التوحيد والحمد لله؛ لأنها مبنية على أساس.

قوله: (وعزّته وغلظته على أهل التوحيد والإخلاص)، يريد من ناصروا الجيوش الغازية وصاروا معهم ضد أهل التوحيد، وضد أهل العقيدة، وخانوا بلادهم وخانوا المسلمين وانضموا إلى الأعداء، ثم ماذا كانت النتيجة؟ الجواب: خسروا الدنيا والآخرة إلا من تاب منهم، فمن تاب تاب الله عليه، لكن من استمر على هذا فقد خسر الدنيا والآخرة، وتحمل الأوزار والآثام بفعله.

ولم يتضرر الإسلام، والعقيدة لم تتضرر، والدعوة لم تتضرر، بل عادت كما كانت أو أقوى والحمد لله، وفي النهاية أين هم؟! الجواب: ليس لهم وجود، بينما الدعوة والتوحيد وأهل الإسلام ولله الحمد باقون أعزاء.

قوله: (فكفى بهذا دليلاً على كفر من وافقهم وإن ادّعى أنه خائف) الخوف لا يُجيز للإنسان أن يتنازل عن دينه أو شيء منه ويلجأ إلى الكفار

قوله: (فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾)، هؤلاء الذي يحبهم ويحبونه لا يخافون في الله لومة لائم؛ لأن الخوف ليس عذراً، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والواجب على المسلم أن يصبر على الخوف.

قوله: (وهذا بضد من يترك الصدق والجهاد خوفاً من المشركين) وفيه قوة، أما إذا صار ليس في المسلمين قوة، وخافوا أن يُقضى على الإسلام فإنهم يؤجلون القتال ويتصالحون مع الكفار على وضع القتال، أي: يهادنونهم، لكن إذا كان في المسلمين قوة وقدرة على الجهاد فلا يجوز لهم أن يتركوه خوفاً من الكفار، فهناك فرقٌ بين كون المسلمين يؤجلون الجهاد لأنهم ليس عندهم استطاعة ومقدرة، وبين كونهم يتركونه خوفاً من الكفار مع قوة المسلمين.

قوله: (ثم قال تعالى: ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في توحيده) في سبيل الله، هذا هو مقصدهم؛ كما قال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله»**[1] وليس كل المقاتلين في سبيل الله، إنما هم حسب نياتهم ومقاصدهم.

قوله: (إنما همتهم وغاية مطلوبهم رضى سيدهم ومعبودهم، والهرب من سخطه) هذا هو الحامل لهم، وليس معنى الجهاد ما هو واقع الآن من بعض الذين يدّعون الجهاد بدون قيادة وبدون تنظيم ولي الأمر، هذا ليس من الجهاد، هذا من التفريط والفوضى، والجهاد لابد أن يكون تحت راية، وتحت إشراف ولي أمر المسلمين، ويكون عند المسلمين عُدة واستطاعة، والجهاد له ضوابط، فإذا توفرت ضوابطه

---

(١) سبق تخريجه.

وشروطه فإنه واجب في الجملة، أما إذا لم تتوفر فلا نقول إنه يُمنع، ولكن يُؤَجل إلى وقتٍ آخر.

قال رحمه الله: ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، فأخبر تعالى أن هذا الخبر العظيم، والصفات الحميدة لأهل الإيمان الثابتين على دينهم عند وقوع الفتن، ليس بحولهم ولا بقوتهم، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء؛ كما قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، فأخبر تعالى خبراً بمعنى الأمر بولاية الله ورسوله والمؤمنين، وفي ضمنه النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

ولا يخفى أي الحزبين أقرب إلى الله ورسوله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، أأهل الأوثان والقباب والقحاب واللواط والخمور والمنكرات، أن أهل الإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؟! فالمتولي لضدهم، واضع للولاية في غير محلها، مستبدل بولاية الله ورسوله والمؤمنين المقيمين للصلاة المؤتين للزكاة ولاية أهل الشرك والأوثان والقباب.

ثم أخبر تعالى أن الغلبة لحزبه ولمن تولاهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ هذا حصر ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا خبر معناه الأمر، أي: تولوا الله جل وعلا، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ محمداً ﷺ، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ هؤلاء الذين يجب على المسلم أن ينضم إليهم ويكون معهم، ولو كانوا مستضعفين، ولو كانوا ليس في أيديهم قوة، يكون مع

المسلمين على أي حالٍ كان عليه المسلمون، ويرضى بالعيش معهم والبقاء معهم، يتولاهم ويحبهم ويناصرهم، وينتمي إليهم،

قولـه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ هذه صفات المؤمنين؛ لأن الإيمان: قولٌ واعتقادٌ وعمل، فليس الإيمان بالقلب فقط دون قول ودون عمل، ولا هو بالقلب واللسان دون عمل، ولا هو بالعمل دون الاعتقاد، إنما لابد من الأمور الثلاثة: قولٌ واعتقادٌ وعمل، هذا هو الإيمان.

قوله: (فأخبر تعالى خبراً بمعنى الأمر بولاية الله ورسوله والمؤمنين، وفي ضمنه النهي عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين)؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا﴾ وهذا حصر، فالوَلاية محصورة بهؤلاء لا تخرج عنهم.

قوله: (ثم أخبر تعالى أن الغلبة لحزبه ولمن تولاهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾) هذا وعدٌ من الله - جل وعلا - بأن الغلبة تكون لهؤلاء، وإن تأخرت للابتلاء والامتحان، فلابد أن تكون العاقبة والغلبة لهم.

قوله: (ولا يخفى أي الحزبين أقرب إلى الله ورسوله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، أأهل الأوثان والقباب والقحاب واللواط والخمور والمنكرات) يعني بذلك الغزاة الذين يقاتلون المسلمين في الدرعية وبلاد نجد وما تبعها، وهذه الصفات قد اعترف به بعض جنودهم كما ذكر ذلك المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار (٣/٣٤١، ٣٤٢)، وكان معاصراً لتلك الحرب الظالمة، حيث قال: «ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع: أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا

على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهباً، وصحبتنا صناديق المسكرات، ولا يُسمع عرضينا أذان، ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين، والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون، وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن، وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طائفة للحرب، وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك؛ لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته، وينادون في معسكرهم: هلموا الى حرب المشركين المحلقين الذقون المستبيحين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، والآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفاً غير مختونين، ولما وصلوا بدراً واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف، وبها خيار الناس، وبها أهل العلم والصلحاء، نهبوهم واخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض، ويقولون: هؤلاء الكفار الخوارج، حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له: حتى تبيت معي هذه الليلة وأعطيها لك من الغد» اهـ. وبه تعلم أن الشيخ لم يبالغ فيما ذكره في حقهم.

الدليل التاسع عشر: قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ **[المجادلة: ٢٢] الآية.**

فأخبر تعالى: أنك لا تجد من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب، وأن هذا مناف للإيمان مضاد له، لا يجتمع هو والإيمان إلا كما يجتمع الماء والنار؛ وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **[التوبة: ٢٣]، ففي هاتين الآيتين البيان الواضح: أنه لا عذر لأحد في الموافقة على الكفر خوفاً على الأموال، والآباء، والأبناء، والأزواج، والعشائر، ونحو ذلك مما يعتذر به كثير من الناس.**

إذا كان لم يرخص لأحد في مودتهم، واتخاذهم أولياء بأنفسهم؛ خوفاً منهم وإيثاراً لمرضاتهم، فكيف بمن اتخذ الكفار الأباعد أولياءً وأصحاباً، وأظهر لهم الموافقة على دينهم، خوفاً على بعض هذه الأمور ومحبة لها ؟! ومن العجب استحسانهم لذلك، واستحلالهم له، فجمعوا مع الردة استحلال المحرم.

الشرح:

هذه الآية أيضاً من أدلة تحريم موالاة الكفار، يقول الله ـ جل وعلا ـ لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا نفي لوجود الإيمان مع مودة الكفار؛ فدل على أن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر لا يواد

الكفار، وأن الذي يواد الكفار لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وكفى بهذا زاجراً عن موادتهم.

والمودة: هي أحد أنواع الموالاة؛ لأن المودة تكون في القلوب، وقوله تعالى: ﴿يُوَآدُّونَ﴾ هذا من أفعال المشاركة، يعني: يبادلون الكفار المودة، والله ـ جل وعلا ـ لا يحب الكفار، فالمؤمن لا يحب ما يبغضه الله عز وجل، إنما يحب مَنْ أحبه الله، ويبغض مَنْ أبغضه الله، وكيف يحب من يبغضهم الله؟!

ولهذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في النونية:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حباً له ما ذاك في إمكان

وكذا تعادي جاهداً أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطان[1]

تعادي أحباب الله وتود أعداء الله، وتدعي أنك تحب الله، فأين المحبة التي تدعيها؟ هذا من التناقض، وعلى أي شيء يُحَب الكفار؟ أيُحبون على الكفر والشرك؟!!

فلا مكان لمحبتهم وهم كفار مشركون، أما التعامل معهم في المباحات دون المحبة فهذا لا بأس به، مثل: التعامل معهم في البيع، والشراء، والاستئجار، والتأجير، وما أشبه ذلك؛ لأن هذا من الأمور الدنيوية، وكذلك مكافأتهم على الإحسان الذي يبذلونه، هذا من باب المكافأة وليس من باب المحبة، فالمحبة في القلوب، وأما التعامل

(١) سبق تخريج كلام ابن القيم رحمه الله.

معهم في المباحات فهذا لا يلزمه المحبة، بل هذا من باب المعاوضة وتبادل المنافع والمصالح التي أباحها الله لعباده.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي: يوم القيامة الذي هو وقت البعث والنشور والجزاء والحساب، الذي يؤمن باليوم الآخر لا يحب الكافرين؛ لأنه يؤمن بأنه سيُحاسب يوم القيامة على محبته للكفار وسيكون معهم في النار وفي الحديث «**من أحب قوماً حشر معهم**»[1] وحديث«**أنت مع من أحببت**»[2] قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: أصولهم أو فروعهم، فالقرابة لا دخل لها في الولاء والبراء، ولو كانوا من أقرب الناس إليك، وليس أحد أقرب إليك من أبيك أو ابنك، فإن كانا كافرين فلا تحبهما، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة: ٤] ما داموا لم يؤمنوا بالله وحده فلا مجال لمحبتهم.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ لما تبين له أن أباه كان عدواً لله تبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ونوح ـ عليه السلام ـ لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، قال الله تعالى له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وفي قراءة: ﴿إِنَّهُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[1] عند ذلك استغفر نوح ربه وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]، فهذا إبراهيم تبرأ من أبيه، وهذا نوح - أيضاً - أخبره الله أن ابنه من النسب ليس من أهله المؤمنين الموعود بإنجائهم من الغرق؛ لأنه كافر، وأنكر عليه أنه خاطب الله أن ينجيه من الغرق.

قال تعالى: ﴿ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ ﴾ لما ذكر الأصول ذكر الحواشي وهم الإخوة من النسب، ولاشك أن أخاك من النسب ألصق الناس بك، بل هو عضدك عند الملمات؛ كما قال تعالى لموسى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص: ٣٥]، لكن إذا كان أخوك كافراً فإنك لا تتولاه ولا تحبه.

قال تعالى: ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعني: قبيلتهم، فتتبرأ منهم ولو كانوا قبيلتك، فلا تحبهم؛ لأن الله لا يحبهم، ولا يجوز أن تحب من يبغضه الله عز وجل.

فلا يجوز محبة الكفار بوجه من الوجوه، وعلى أي شيء يُحبون؟ يحبون على الكفر والشرك ومعاداة الرسل؟! ما أبقوا للمحبة مكاناً، والقرابة وحدها لا تسوغ المحبة، فأنت تحب المؤمنين ولو كانوا غير أولي قربى، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال:

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة **{إِنَّهُ عَمَلٌ}** مرفوع منون **{غَيْرُ صَالِحٍ}** برفع الراء، وقرأ الكسائي وحده **{إِنَّهُ عَمِلَ}** بكسر الميم وفتح اللام **{غَيْرَ صَالِحٍ}** بنصب الراء. انظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص٣٣٤)، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطي (ص٣٢١)، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه (ص١٨٧)، وحجة القراءات لابن زنجلة (ص٣٤١).

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ومن العجيب أن بعض الناس يعادي أهل الإيمان ويحب أهل الكفران، وهذا من انتكاس الفطرة.

فدلت هذه الآية الكريمة على أنه لا تجوز محبة الكافر ولو كان أقرب قريب إليك، فكيف إذا كان ليس من أقاربك؟ فهذا من باب أولى، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، فهذا دليل واضح على أنه لا تجوز محبة الكافر بوجه من الوجوه.

أما التعامل مع الكافر في المباح ـ كما سبق ـ فهذا ليس من باب المحبة، وإنما هو من باب تبادل المصالح والمنافع التي أباحها الله سبحانه وتعالى، فلا يُخلط هذا مع هذا؛ لأن بعض المغرضين أو الجهال يحتج بقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة: ٨] على أنه تجوز محبة الكفار، والآية ليست في هذا، إنما هي في المكافأة على المعروف الذي بذلوه مع المسلمين، ولا يدل هذا على محبتهم، وإنما هو من باب رد الجميل فقط، والتعامل المباح في الدنيا.

قوله: (ولو كان أقرب قريب) وليس أحد أقرب من الآباء والأبناء والإخوة والعشيرة؟

قوله: (وأن هذا مناف للإيمان مضاد له)؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فإن احتج أحدٌ وقال: هؤلاء أقاربي وذوي أرحامي. فالله - جل وعلا - يقول: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣]، فيوم القيامة ليس فيه أرحام ولا أولاد، كلٌ ليس له إلا عمله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾ [عبس: ٣٤، ٣٦]، كلٌ مشغول بنفسه، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ليس لك في الآخرة إلا عملك، ولا أحد يعطيك حسنة واحدة ولو كان من أقرب الناس إليك، فلا ينفعك القريب يوم القيامة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ نص على اليوم الآخر؛ لأنه لا تنفع فيه القرابة، وإنما كلٌ لا ينفعه أو يضره إلا عمله، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ{٨٨} إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩].

قوله: (هذا منافٍ للإيمان مضاد له) بدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ هذا إخبار من الله أن هذا الشيء لا يوجد مع وجود الإيمان الصحيح، وإذا أخبر الله عن شيء أنه لا يوجد، فإنه لا يوجد أبداً، فدل على أنهما متنافيان متضادان، مثل ما يتضاد الماء والنار، فالماء يطفئ النار ولا يجتمعان؛ ولهذا قال: **(مضاد له)**.

قولــه تعــالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ هـذا نهي من الله عز وجل، ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ ﴾ سواءً كان الأب القريب أو الأب الأعلى كالجد أو جد الجد، أو الأم أو الجدة، ﴿ وَإِخْوَٰنَكُمْ ﴾ إخوانكم الأشقاء أو لأب أو لأم، أي: إخوانكم في النسب ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني: توالونهم بالمحبة في القلوب، والنصرة في الأعمال، والمدح في الأقوال، ﴿ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ ﴾ آثروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله وأحبوا الكفر وأهله، فلا تتخذوهم أولياء.

فإذا كان ذلك مع الآباء والأبناء، فكيف بغيرهم من الكفار الذين لا تربطك وإياهم صلة؟ فهؤلاء من باب أولى.

ثم قال: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ ﴾ هذا كما في آية المائدة: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ [المائدة: ٥١]، فيها دليل على أن هذا كفر بالله عز وجل.

قال: ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه، فهؤلاء وضعوا المحبة في غير موضعها، فصاروا ظالمين بذلك.

قوله: (ففي هاتين الآيتين) هذه الآية ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ ﴾ والآية التي بعدها ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ تربصوا: أي انتظروا ما يحل بكم ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ

ﭐللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، هذا تهديد من الله - سبحانه وتعالى - لمن آثر هذه المحاب أو خاف إن لم يتولَ الكفار أن تفوت عليه هذه المصالح، فهذا آثر الدنيا على الآخرة، وآثر غضب الله على رضى الله سبحانه وتعالى، وآثر موالاة الكفار على موالاة الله ورسوله؛ ولذلك الصحابة في مكة خرجوا وتركوا أموالهم وأوطانهم وبيوتهم وتجاراتهم مهاجرين إلى الله عز وجل؛ لما في قلوبهم من الإيمان الصادق.

قوله: (.. خوفاً على الأموال والآباء..) تقدم لنا مراراً أن مجرد الخوف لا يبيح للإنسان موافقة الكفار على ما يطلبون منه، إنما هذا في الإكراه فقط، أما مجرد الخوف فإنه لا يجوز للإنسان أن يوافقهم بل يصبر.

قوله: (مما يعتذر به كثير من الناس) كثير من الناس يتعللون بأنهم يخشون على أموالهم وأولادهم إن أبغضوا الكفار ولم يناصروهم ولم يوافقوهم على ما يطلبون منهم ضد المسلمين، وهذا ليس بعذر عند الله سبحانه وتعالى.

قوله: (إذا كان لم يُرخص لأحد في موادتهم..) إذا كان لا يوالي أقرباءه الكفار فكيف يوالي الكفار الأباعد الذين ليسوا من أقاربه؟! فمن باب أولى أن يبغضهم ويتبرأ منهم ومن دينهم كما قال إبراهيم والذين آمنوا معه: ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]، فما داموا لم يؤمنوا بالله وحده فإن المعاداة باقية، والموالاة منتفية إلى هذه الغاية، فالأمر واضح في هذا جداً، ولا يتعذر الإنسان بأنه يخاف على دنياه، أو حتى يخاف على أقاربه، أو على تجارته، هذه كلها ليست أعذاراً.

قوله: (وأظهر لهم الموافقة على دينهم، خوفاً على بعض هذه الأمور ومحبة لها)
آثر محبة هذه الأمور على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله، وترك هذه الأمور من أجل إرضاء الكفار والنيل من دنياهم، مع أن الكفار لا يرضون عنك ولا يحبونك أبداً، إنما الكفار يبغضون المؤمنين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، مهما تودد المسلم إلى الكفار فإنهم يبغضونه ولا يبادلونه المحبة، وهذا من العجائب، فكيف يحبهم وهم لا يحبونـــه؟! ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١١٩، ١٢٠]، بعض الناس يخاف من كيدهم، والله ـ جل وعلا ـ يقول: اصبر واتق ربك ولا تتق الكفار، فإذا حصل منك الصبر والتقوى فإنهم لا يضرونك، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

قوله: (ومن العجب استحسانهم لذلك واستحلالهم له)، كان في زمان الفتنة التي جرت على بلاد نجد أناسٌ يوالون أهل التوحيد، ويظهرون لهم المحبة والموافقة، فلما جاء الهجوم والغزو على الموحدين انضموا إلى الأعداء، فظهر ما كان يبطنونه ويسرون من قبل، لو كان عندهم إيمان وصدق ما انضموا إلى أعداء الله ورسوله؛ ولصبروا وثبتوا على دينهم وعلى عقيدتهم، لكنهم جمعوا بين جريمتين: مودة الكفار، واستحلال الحرام لما استباحوا دماء المسلمين وأعانوا أعداءهم عليهم.

الدليل العشرون: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ **[الممتحنة: ١].**

فأخبر تعالى: أن من تولى أعداء الله - وإن كانوا أقرباء - ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ **أي: أخطأ الصراط المستقيم، وخرج عنه إلى الضلال، فأين هذا ممن يدعي أنه الصراط المستقيم لم يخرج عنه !! فإن هذا تكذيب لله، ومن كذب الله فهو كافر، واستحلال لما حرم الله من ولاية الكفار، ومن استحل محرماً، فهو كافر.**

ثم ذكر تعالى شبهة من اعتذر بالأرحام والأولاد؛ فقال: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ **[الممتحنة: ٣]، فلم يعذر تعالى من اعتذر بالأرحام والأولاد، والخوف عليها ومشقة مفارقتها؛ بل أخبر أنها لا تنفع يوم القيامة، ولا تغني من عذاب الله شيئاً؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى:** ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ **[المؤمنون: ١٠١].**

الشرح:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى .... ﴾ سبب نزول هذه السورة الحادثة التي حصلت في غزوة الفتح، وذلك أن النبي ﷺ خرج في رمضان غازياً أهل مكة لما خانوا العهد الذي أبرموه مع النبي ﷺ في الحديبية وناصروا أعداء الرسول ﷺ حيث

ناصروا حلفاءهم على حلفاء الرسول ﷺ، فنقضوا بذلك عهدهم، فغزاهم رسول الله ﷺ وأخفى الأمر ولم يُبين أنه يريد غزو مكة حتى يفاجئهم في بلادهم، ثم إن أحد الصحابة، وهو حاطب بن أبي بلتعة ﷺ اجتهد وكتب للكفار يخبرهم بمسير النبي ﷺ؛ لأن له أولاداً وأقارب في مكة، ويريد أن تكون له يد عندهم حتى لا يضروهم، ورأى أن كتابه هذا لن يضر الرسول ﷺ والمؤمنين، فتأول هذا التأويل وكتب كتاباً أرسله مع امرأة من المشركين إلى أهل مكة، فأطلع اللهُ ـ عز وجل ـ رسوله ﷺ على ما فعله هذا الصحابي، فبعث رسول الله ﷺ علياً ومن معه في أثر هذه المرأة، فأدركوها في مكان في الطريق بين مكة والمدينة يسمى روضة خاخ، فأخذوا منها الكتاب، وجاءوا به إلى النبي ﷺ.

فاستدعى رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة وسأله فقال له: **«ما حملك على ما صنعت؟»** انظر: إلى حلمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يتعجل بالبطش به، أو بقتله، بل سأله ؛ لأنه صحابي جليل، فربما يكون له عذر أو يكون متأولاً، قال حاطب: **«يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام»**، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد صدقكم»**، قال عمر ﷺ: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: **«إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**[1]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي ﷺ.

لأن أهل بدر لهم سابقة ولهم فضل يسببان أن يُغفر لهم ما قد يقع منهم من الأخطاء، فعفا عنه الرسول ﷺ نظراً لصحبته وأنه من أهل بدر، ولأنه صدقه وأخبره بالخبر الصادق، ولم يأت بأعذار غير صحيحة، بل أتى بالعذر الذي يرى أنه الصحيح؛ لأنه اجتهاد منه أخطأ فيه، وهو باقٍ على إيمانه وليس منافقاً ولا شاكاً في إيمانه، ولا محابياً للكفار؛ لأنه يعلم أن الله مع رسوله ﷺ، وأنزل الله سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾ إلى آخر السورة، وهي سورة كلها عتاب، وكلها ذكر لحالة إبراهيم والذين معه وبراءتهم من الكفار، وكلها بيان أن الأولاد والأرحام لا ينفعون يوم القيامة.

فهذا سبب نزول هذه السورة، لكنها عامة إلى أن تقوم الساعة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى﴾ وصف هذا الصحابي بأنه من المؤمنين، فدل هذا على أن هذا الصحابي لم يتزعزع إيمانه ولا يقينه بالله عز وجل، وقد صدق في قوله للنبي ﷺ: **«ما فعلته كفراً ولا ارتداداً ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام»**.

قوله: (فأين هذا ممن يدعي أنه على الصراط المستقيم لم يخرج عنه) يفعلون ما يفعلون مع الكفار من التودد والتملق وإظهار الطاعة لهم، ويزعمون أن هذا لا يضرهم، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي السبيل السوي، وهو الصراط المستقيم، فهذا من أشد الوعيد على من فعل هذا والذين ناصروا الغزاة على المسلمين يقولون: نحن ما أخطأنا في هذا وهذا حلال وهذا مباح.

ولو أنهم اعترفوا وقالوا: قد أخطأنا ـ مثل ما فعل هذا الصحابي ـ ونتوب إلى الله عز وجل. لكان خيراً لهم، لكنهم يصرون على ما فعلوا ويقولون: هذا هو الصواب، وهذه هي السياسة والحنكة، والإنسان يعيش مع الناس، ويدبر أمره مع الناس، وأنتم المخطئون وأنتم المتشددون ... إلى آخر ما يقولون من النعوت، التي تنطبق عليهم هم، وكونهم يصرون على ما فعلوا ويصوبون أنفسهم ويعارضون الآيات، فهذا أشد من فعلهم.

قوله: (فإن هذا تكذيب لله)؛ لأنه يقول: أنا على الصراط ولم أُخطئ، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قوله: (ومن كذب الله فهو كافر) إذا وصل بهم الحال إلى أن يصوبوا أفعالهم، ويقولون: إن هذا شيء مباح، وما أخطأنا، فيكون هذا تكذيباً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولا شك في كفر من كذب الله أو كذب الرسول ﷺ بعدما يتبين له الحق.

قوله: (ومن استحل محرماً، فهو كافر)، أي: من استحل محرماً مجمع على تحريمه فهو كافر، وقد أُجمع على تحريم موالاة الكفار، والولاء والبراء أصل من أصول الإيمان، وأوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله عز وجل، هذا أصل من أصول الإيمان.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يوم القيامة لاتنفع الأرحام والأولاد ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] كلٌ مشغول بنفسه، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، فلا أحد ينفع أحد يوم القيامة ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يوم القيامة لا يبقى معك إلا العمل، فلا يبقى معك مال، ولا أقارب، ولا والد، ولا ولد، ولا أخ، قال تعالى: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم عن بعض يوم القيامة، فكلٌّ مشغول بنفسه، ويطلب النجاة لنفسه من شدة الهول والخطر، ولن ينفعك عمل غيرك، إنما يكون لك عملك أنت فقط إن كان صالحاً أو سيئاً، ولا تؤاخذ بعمل غيرك ولا تنتفع بعمل غيرك يوم القيامة.

الدليل الحادي والعشرون: من السنة، ما رواه أبو داود، وغيره عن سمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ جَامَعَ الْمُشرِك، وسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّه مِثلُهُ»[1].

فجعل ﷺ في هذا الحديث: من جامع المشركين - أي اجتمع معهم وخالطهم - وسكن معهم مثلهم، فكيف بمن أظهر لهم الموافقة على دينهم، وآواهم وأعانهم؟!!

فإن قالوا: خفنا!. قيل لهم: كذبتم. وأيضاً فليس الخوف بعذر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، فلم يعذر تبارك وتعالى من يرجع عن دينه عند الأذى والخوف، فكيف بمن لم يصبه أذى ولا خوف، وإنما جاء إلى الباطل محبة له وخوفاً من الدوائر؟!.

والأدلة على هذا كثيرة، وفي هذا كفاية لمن أراد الله هدايته.

وأما من أراد الله فتنته وضلالته؛ فكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

ونسأل الله الكريم المنان: أن يحيينا مسلمين، وأن يتوفانا مسلمين، وأن يلحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين برحمته، وهو أرحم الراحمين.

وصلى الله علي محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٨٧)، والطبراني في الكبير (٧٠٢٣).

الشرح:

قوله ﷺ: **«مَنْ جَامَعَ الْمُشرِك»** يعني: اجتمع معه في بلده، **«وسكن معه»**؛ لأنه إذا صار معهم سيشاركهم في كفرهم ويناله منهم ما يناله، أو مظنة أنه يشاركهم، حتى ولو تمنع في بداية الأمر فإنه ينساح معهم في النهاية، ويفعل ما يفعلون، وإن سلم هو منهم فلن يسلم أولاده؛ لأن نشأتهم بين المشركين تجعلهم يستسهلون ما يفعلون.

ولذلك فإن المسلم إذا قدر على الهجرة فإنه يؤمر بها فراراً بدينه، ومن لم يُهاجر مع القدرة فقد توعده الله بالوعيد الشديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩]، مع تمسكهم بدينهم وإظهارهم لدينهم، فإذا كانوا عاجزين وهم متمسكون بدينهم وعقيدتهم عسى الله أن يعفو عنهم نظراً لعذرهم.

فلا يجوز للمسلم أنه يقيم في بلاد الكفار اختياراً وهو يقدر على الهجرة، فإن تأخر فهو متوعد بالوعيد في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ....﴾ [التوبة: ٢٤] إلى آخر الآية من سورة التوبة، فالذي يترك الهجرة لأجل هذه الأشياء فإنه بهذا يكون قد قدم محبة هذه الأشياء على محبة الله ورسوله، فبقي بين الكفار لمحبته لهم، وصاروا أحب إليه من رضى الله عز وجل، ومن اتباع الرسول ﷺ.

ومحبة الدنيا ليست عذراً للإنسان أنه يقيم في بلاد الكفار، ويستحسن العيش فيها لما فيها من وظائف وزخرف الدنيا .. وغير ذلك، فلا يجوز للإنسان أنه يبقى ويساكن

الكفار، ويجاورهم، ويكون تحت نظامهم وتحت سلطتهم وإمرتهم، ويُكثِّر سوادَهم، لا يجوز هذا إلا في حالة العذر.

قوله: (مثلهم)، أي: من ساكنهم واجتمع معهم وصار مثلهم في الحكم.

قوله: (فكيف بمن أظهر لهم الموافقة على دينهم) إذا كان هذا فيمن اجتمع مع المشركين وسكن في بلادهم وترك الهجرة من غير عذر، أنه يكون مثلهم يوم القيامة، فكيف بالذي ساعد المشركين الغزاة على المسلمين، وقد أتى بهم، ونقلهم، وفتح لهم الطريق، وشاركهم في قتال المسلمين؟ لا شك أن هذا أشد.

قوله: (وآواهم) أي أسكنوهم في بيوتهم أو في محلاتهم، ولو بالإيجار، فلا يجوز له أن يؤجرهم؛ لأنهم غزاة.

قوله: (فإن قالوا: خفنا !. قيل لهم: كذبتم)؛ لأنكم في بلد المسلمين ومع المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا في حال السعة يُظهر الإيمان، فإذا جاءت الفتنة والابتلاء والامتحان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ففر من الفتنة التي تجري عليه من الكفار إلى ما هو أشد منها وهو عذاب الله عز وجل، فأي الأمرين أشد: أن يصبر على الفتنة مدة يسيرة وتنقضي، أو أنه يذهب إلى جهنم ويخلد فيها ؟ نعم فتنة الناس يناله منها مشقة وأذى وألم، لكن يجب أن يصبر على دينه، وهي فترة وجيزة وتنجلي، لكن عذاب الآخرة لا ينجلي ولا يزول، فإن مسك ضر من الكفار فتذكر الضر الذي يمسك من النار وهو أشد، لتصبر على دينك.

قوله: (فلم يعذر تبارك وتعالى من يرجع عن دينه عند الأذى والخوف) بل أمره أن يصبر على ذلك.

قوله: (فكيف بمن لم يصبه أذى ولا خوف)؛ بل يتلقى العدو قبل أن يأتيه أذى وقبل أن يأتيه خوف، لما سمع أنهم يعزمون على الهجوم على المسلمين، ذهب يتلقاهم ويساعدهم ويبين لهم الطرق وأسرار المسلمين.

قوله: (وإنما جاء إلى الباطل محبة له وخوفاً من الدوائر)؛ كما قال الله في المنافقين: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾، يعني: في الكفار، يتسابقون إلى مودة الكفار، وإرضاء الكفار ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ بأن تصير الدائرة على المسلمين وينتصر الكفار، يريدون أن تكون لهم يد مع الكفار إذا تغلبوا على المسلمين، هذه حنكتهم وسياستهم؛ كأنهم لا يثقون بالله، ولا يحسنون الظن به عز وجل.

قوله: (والأدلة على هذا كثيرة. وفي هذا كفاية لمن أراد الله هدايته) لما فرغ من إيراد الأدلة، قال: الذي ذكرت فيه كفاية، والأدلة في القرآن وفي السنة أكثر من هذا، لكنه أورد هذه الأدلة كتذكرة أو نموذج أو تنبيه على هذا الأمر الخطير، حتى ينتفع بها أهل الإيمان. وأما أهل النفاق وأهل الزيغ فلن تنفع فيهم أبداً؛ لأن الزائغ والمنحرف وصاحب الهوى لا تستطيع أن تثنيه عن هواه، أو ترده عن ضلاله؛ لأنه عصى الله على بصيرة، ولم يعصِ الله عن جهل حتى يقبل النصيحة، وقد يكون من العلماء، وعنده أكثر مما عندك من العلم، ولكنه عالم ضلال فلا تستطيع أن ترده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الذين قُدر عليهم الزيغ والضلال كُتب عليهم ذلك في اللوح المحفوظ، ولا تستطيع ردهم. ولماذا كُتب عليهم؟ كتب عليهم الزيغ والضلال بسبب ما سيفعلونه وما يقومون به من الانحراف عن تعمد، وعن عناد، وعن كراهية للحق.

الخاتمة

نحب أن نبين شيئاً مما يتعلق بالجهاد إزالة للبس الذي يحصل حوله فنقول: إن معاداة الكفار و بغض الكفار لا يجيزان التعدي عليهم بغير حق؛ لأن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة :٨]، فلا يجوز الظلم لا للمسلم، ولا للكافر.

وأما جهاد الكفار وقتالهم في سبيل الله فهذا ليس ظلماً لهم، وإنما هو من صالحهم؛ لأجل إنقاذهم من النار إلى الجنة؛ لأن الجهاد يكون سبباً لرجوعهم إلى الحق، وقبولهم له، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فالقتال إنما هو لمصلحتهم، وإنقاذاً لهم ولغيرهم ممن هم تحت وطأتهم، وإنما هو للذين يصدون عن سبيل الله عز وجل.

فلا يجوز التعدي عليهم، ولا يجوز قتلهم إلا في الجهاد في سبيل الله، تحت راية الجهاد، أما أن يشهر كل أحد سلاحه على الكافر ويقتله، فهذا لا يجوز، فقد يكون معاهداً، أو مستأمناً، أو ذمياً، وحتى إن كان ليس له عهد ولا أمن ولا ذمة فإنه لا يجوز التعدي عليه؛ لأن هذا قد يجر على المسلمين شراً ولا يحقق مصلحة، وإنما يجوز قتالهم تحت راية الجهاد، وذلك بعد دعوتهم إلى الله عز وجل، ولا نقاتلهم ابتداءً حتى ندعوهم ونعرض عليهم الإسلام.

فالمسألة لها ضوابط، وليس كل كافر يُقتل ويؤخذ ماله؛ إنما يؤخذ في الجهاد غنيمة في المعركة، أما أن يؤخذ مال الكافر ويُقال: هذا كافر وحلال الدم والمال، فهذا لا يجوز، نعم هو حلال الدم والمال، لكن بالجهاد في سبيل الله، أما بدون جهاد فلا

يجوز هذا أبداً، وهذا فيه تجن على الإسلام والمسلمين، وفيه سبب للشر ؛ لأن الكفار سينتقمون من المسلمين، وليس عند المسلمين قوة ولا استعداد ؛ كما هو الحاصل الآن.

فيجب أن نعلم هذا، وننشره على شبابنا، وعلى المغرر بهم، ونبين لهم أن هناك فرقاً بين معاداة الكفار وبغضهم، وبين ظلمهم والاعتداء عليهم بغير حق، بأن هذا لا يجوز ؛ لأنه يجر على المسلمين شراً.

الفتاوى المنتقاة
من أجوبة فضيلة الشيخ حفظه الله
على أسئلة طلابه أثناء شرحه لهذه الرسالة

سؤال: المعاملات التجارية مع الكفار تقتضي أن نضحك معهم، ونجتمع معهم ونآكلهم ونشاربهم في بعض الأحيان؛ لأجل إبرام أمور التجارة، هل هذا يعد من الموالاة؟

الجواب: أمور التجارة لا تعد من الموالاة، بل من تبادل المصالح، لكن لا تظهر لهم المحبة، والصداقة، لكن تعامل معهم في حدود المصالح، ولابأس بأكل طعامهم الذي ليس محرماً ولا يخالطه محرم وأما الضحك معهم فإذا كان معه محبة فإنه لايجوز.

سؤال: هناك من يُفسر الولاء بوجود الكفار في هذه البلاد وحمايتهم من القتل والتفجير، وعدم مقاطعة الدول التي تحارب المسلمين، فهل هذا الكلام صحيح؟

الجواب: هذا ليس بصحيح، بل يجب الوفاء بالعهود، وأن نحفظ دماء المعاهدين كما نحفظ دماء المسلمين، والله حرم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] فالنفس التي حرم الله تشمل نفس المؤمن وتشمل نفس المعاهد، فالمعاهد حرم الله قتله، فلا يجوز، **«ومن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»** كما في البخاري، فلا يجوز هذا، وأما المقاطعة التجارية فهذه تتبع المصالح والمفاسد، الأصل في المعاملات الحل، ولكن إذا رأى ولي الأمر مقاطعتهم وأصدر بذلك أمراً بمقاطعتهم فنحن نقاطعهم.

سؤال: ما معنى قول النبي ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، وما علاقته بالولاء والبراء، وما هي حدود الجزيرة؟

الجواب: هذه المسألة كُتب فيها ووضح الأمر فيها وتجلت ولله الحمد أنه ليس معنى **«أخرجوهم»** أن كل واحد يخرجهم، هذا من صلاحيات ولي الأمر الذي له الحل والعقد، هذه ناحية، الناحية الثانية أن معنى **«أخرجوهم»** يعني لا تتركوهم يستوطنون ويتملكون في بلاد المسلمين، ويبنون كنائسهم، وليس معناه أنه لا يأتي منهم تجار، ولا يأتي منهم خبراء، ولا يأتي منهم مندوبون للتفاوض مع المسلمين، أو يأتي منهم ناس للاستطلاع عن الإسلام ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالمعنى أنهم لا يُتركون يستقرون استقراراً دائماً ويسكنون سكنى مستقرة، وليس معناه منع القدوم الطارئ لأغراض مباحة ويرجعون، فهذا لا يدخل في هذا، ثم إن الرسول قال: **«أخرجوهم»** ما قال: اقتلوهم، وهؤلاء المخربون يقتلونهم ويفجرون مقراتهم و هذا خيانة للرسول ﷺ؛ لأن الرسول عصم دماء المعاهدين والمستأمنين وهؤلاء يقتلونهم، فهم في جانب وسنة الرسول ﷺ في جانب آخر، فهؤلاء المخربون شاقوا الله ورسوله.

سؤال: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]؟

الجواب: المراد المشركون الذين ليس لهم عهد؛ لأن الرسول ﷺ لما نزل عليه الأمر بالجهاد أمره الله بالوفاء بالعهود، فإذا انتهت العهود فإنه إذا أراد أن يقاتلهم يعلن ذلك لهم ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى

ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢ ، ١] أعطاهم الله مهلة أربعة أشهر، ما باغتهم الرسول بإلغاء العهد، بل أمره الله أن يعطيهم فسحة، فهذه الآية التي ذكرها السائل في الكفار غير المعاهدين، والله تعالى أعلم.

سؤال: ما حد الخوف الذي يجوز معه موافقة الكفار، والقلب مطمئن بالإيمان؟

الجواب: الخوف لايجيز الموافقة للكفار وإنما هذا في الإكراه فإنه يجيز الموافقة في الظاهر دون الباطن دفعاً للإكراه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

سؤال: هل من فرح بسقوط بعض المفسدين في الأرض ولو كان القابض عليه من الكفار هل يعد هذا من موالاة الكافرين؟

الجواب: المفسدون في الأرض لا يجوز العطف عليهم، وإذا قبضهم الكفار عرفنا أن هذه عقوبة من الله لهم، وأن الله سلط عليهم الكفار عقوبة لهم، ولا نتعاطف مع المفسدين في الأرض، ولا يعد هذا من موالاة الكفار، بل يُقال: هذه عقوبة من الله لهؤلاء المفسدين ، سلط الله عليهم من هو أقوى منهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

سؤال: هل من احتاج إلى العمل في سفارة دولة مسلمة في بلاد الكفر يكون آثماً ومهاجراً إليهم؟

الجواب: هذا من التعامل المباح، يكون بين المسلمين وبين الدولة الكافرة ما يُسمى بالدبلوماسية وفتح السفارة عندهم، وفتح سفارتهم عندنا هذا لا بأس به، والعمل فيه جائز ولكن بشرط أنه يبتعد عن مواطن الفساد، والنظام الدولي: أن السفارة أرض للبلد التي هي لها، فالسفارة السعودية أرضاً للسعودية ولو كانت في دولة كافرة هي أرض للسعودية حكماً.

سؤال: هل التجنس بجنسية الدولة كافرة يعتبر من موالاة للكفار، وهل هو جائز؟

الجواب: لايجوز للمسلم التجنس بجنسية دولة كافرة هذا من سريان أحكامهم عليه، وقد كُتب في هذا مؤلفات في حكم التجنس بجنسية الكفار، أنه نوع من الدخول تحت حكمهم وتحت طاعتهم.

سؤال: هناك من ينسب إلى الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ أنه قد تراجع عن تكفير من ينحي الشريعة، فهل هذا صحيح؟

الجواب: هذا من الكذب والافتراء على علماء المسلمين، والشيخ لم يتراجع، والذي قاله حق ليس بباطل حتى يتراجع عنه، مأخوذ من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، والفتوى المذكورة مطبوعة في فتاواه وفيها تكفير من نحى الشريعة الإسلامية عن الحكم وجعل مكانها القانون الكافر.

سؤال: وهناك من ينسب هذا التراجع عن تكفير من ينحي الشريعة إلى فضيلتكم.

الجواب: نبرأ إلى الله من ذلك، نحن لا نتراجع عن تكفير من كفره الله ورسوله، وإن كذبوا علينا فحسابهم على الله، أنا أعلم أنه يوجد مرجئة يريدون ألا يُكفَّر أحد، يقولون: ما دام إن الإيمان في القلب فلو عمل مهما عمل لا يكفر، حتى ولو استهزأ بالقرآن يقولون: لا يكفر، ولو وطئ على القرآن أو ألقاه في المزبلة لا يكفر ما دام في قلبه إيمان، هذا مذهب المرجئة.

سؤال: ما الفرق بين الوصف بالكفر، والحكم على المعين بالكفر والاعتقاد بكفر المُعيّن؟

الجواب: أما الحكم بالكفر على الأعمال كدعاء غير الله، والذبح لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والاستهزاء بالدين، ومسبة الدين: هذا كفرٌ بالإجماع بلا شك، لكن الشخص الذي يصدر منه هذا الفعل، هذا يُتأمل فيه فإن كان جاهلاً أو كان متؤولاً أو مقلداً فيدرأ عنه الكفر حتى يُبيَّن له؛ لأنه قد يكون عنده شبهة أو عنده جهل، فلا يُتسرع في إطلاق الكفر عليه حتى تُقام عليه الحجة، فإذا أُقيمت عليه الحجة واستمر على ما هو عليه فإنه يُحكم عليه بالكفر، لأنه ليس له عذر.

سؤال: أرجو من سماحتكم أن توجهوا النصيحة لمن يتهاون في هذه المسائل وهي دعوة التقريب بين الأديان، وعدم التشديد في هذه المسائل حيث عمّت بها البلوى؟

الجواب: التقريب بين الأديان لا يمكن أن تُقرب بين ما فرّقه الله عز وجل، ولا أن تفرّق بين ما جمع الله سبحانه وتعالى، هذا مستحيل شرعاً، هذا فرقٌ بين المؤمن والكافر، لا يتفقان أبداً، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾

[السجدة: ١٨]، ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ١٩، ٢٠]، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] هذا لا يمكن أبداً، فلا يمكن التقريب بين الكفر والإيمان أبداً.

سؤال: هل محبة الكفار من غير إعانتهم على المسلمين كبيرة من كبائر الذنوب، أم أنها كفرٌ مخرج من الملة؟

الجواب: سبق أن بينا أن محبة الكفار بدون أن يكون معها عمل ضد الإسلام والمسلمين أو محبة لدين الكفار أن هذا محرّم وكبيرة من كبائر الذنوب إلا إذا صحح مذهبهم فإنه كافر وكذا محبة الكفار التي معها نصرة للكفار وتأييد الكفار وإعانة على المسلمين، فهذه ردّة صريحة.

سؤال: هل من هُدد تهديداً محققاً يحق له أن يتلفظ بالكفر أو ينتظر حتى يُنفذ في حقه التهديد؟

الجواب: إذا كان التهديد محقق الوقوع والمهدد قادر على التنفيذ فيباح للمكره العمل بالرخصة.

سؤال: ما الفرق بين مداراة هرقل الروم لقومه وبين مداراة النجاشي لقومه، فإن النجاشي ظلّ مستتراً مُظهراً لقومه النصرانية وهو في الحقيقة مسلم؟

الجواب: الذي جرى من هرقل ليس بمداراة، وإنما هو موافقة لقومه خشيةً على مُلكه ولم يُسلم، أما النجاشي فقد أسلم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكنه في بلد لا يقدر على تنفيذ الشريعة الإسلامية.

سؤال: أحد المحسوبين على الدعوة يخرج في هذه الأيام في وسائل الإعلام ويقول: إنه لا يُقال الكافر عند دعوته، وإنما يقال له الغير والطرف الآخر، وغير المسلم، إن كان يُطمع في إسلامه، وإن كان غير ذلك فإنه يقال له عندئذٍ كافر، فهل هذا القول صحيح؟

الجواب: نعم إذا أردت أن تدعوه إلى الإسلام لا تقل له: يا كافر، إذا قلت له يا كافر فإنه يأنف، لكن قل له: أنت إنسان عاقل تريد لنفسك الخير وهذا هو الإسلام، وتشرح له الإسلام، وترغبه في الإسلام بالكلام الطيب، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] عند الدعوة ما يقال له أنت كافر، أما عند بيان الأحكام أن هذا مسلم وهذا كافر فيقال هذا كافر وهذا مسلم.

سؤال: يقول بعض الناس في الدول المجاورة إن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ عاونت من خرج على الوالي العثماني، فيعدون بذلك قد شقوا عصا الطاعة، واستولوا على الحكم دونه، فهل هذا الكلام صحيح؟

الجواب: الشيخ دعا إلى التوحيد، وهدم معالم الشرك، وقام بالتوحيد، وأيضاً السلطان ما استولى على بلاد نجد، وإنما هي بيد أمرائها وحكامها، وأيضاً الشيخ ما ظهر في هذا يطلب المُلك أو نزع يد السلطان وإنما قام بإزالة الشرك ومظاهره.

سؤال: ذكرتم حفظكم الله أن الجهاد لابد أن يكون تحت راية وتنظيم ولي أمر المسلمين، فهل هذه الشروط هي في جهاد الطلب أو في جهاد الدفع؟

الجواب: كلاهما، جهاد الدفع لا يتم إلا بقيادة ولي الأمر.

سؤال: الذين يرون الخروج على الأئمة هل يُعدُّون من أهل السنة والجماعة أم يُعدون من أهل البدعة والضلالة؟

الجواب: يعدون من الخوارج؛ كما سمّاهم الرسول ﷺ: من المارقين ومن الخوارج؛ كما جاء في الأحاديث. ومذهبهم ليس هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ لأن مذهب أهل السنة والجماعة السمع والطاعة لولي أمر المسلمين، أما الخروج عليه فليس هو مذهب أهل السنة والجماعة.



مراجع التحقيق

- أبجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٩٧٨م.
- إتحاف فضلاء البشر في القرءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد الدمياطي، تحقيق أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة، لبنان.
- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ.
- إغاثة اللهفان، من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- الآحاد والمثاني، أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني، تحقيق باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق علي البجاوي، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز. الرياض، طبعة ١٤٠٣هـ.
- الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
- الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، لابن المنذر النيسابوري، تحقيق أبو حماد صغير أحمد بن حنيف، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.
- التمهيد لابن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، طبعة ١٣٨٧هـ.
- الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ.
- الحطة في ذكر الصحاح الستة، أبو الطيب السيد صديق حسن القنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- الدر المنثور، عبد الرحمن بن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٣م.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف، الهند، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
- الزهد للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
- السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
- السنة لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- السنن الكبرى، للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، طبعة ١٤١٤هـ.
- السنن الكبرى، للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
- الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل أبو طامي، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ.

- الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية.
- العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت.
- العظمة، لأبي الشيخ، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- الفتن، نعيم بن حماد المروزي، تحقيق سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد، القاهرة، الطبعة الأولى١٤١٢هـ.
- الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٦هـ.
- الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.
- القدر، أبو بكر جعفر بن محمد بن المستفاض، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، أضواء السلف، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- الكافي في فقه ابن حنبل، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.
- المبسوط، للإمام أبو بكر محمد بن أحمد السّرخسي الحنفي، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.
- المجموع شرح المهذّب، لأبي زكريا يحي بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

- المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
- المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.
- المغني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٥هـ.
- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤٠٤هـ.
- المنتقى، لابن الجارود، تحقيق عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتاب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- النهاية في غريب الأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، طبعة١٣٩٩هـ.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.
- تاريخ ابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ مدينة دمشق، تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٩٩٥م.
- تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- تفسير ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٥هـ.
- تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠١هـ.
- تفسير القرطبي، طبعة دار الشعب، القاهرة، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.
- تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى محمد، مكتبة الرشد ، طبعة ١٤١٠هـ.

- حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ.
- حلية الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.
- حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، د. سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- دلائل النبوة، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- زاد المسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.
- سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ.
- سيرة الإمام أحمد بن حنبل - أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبدالمنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.
- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.
- شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
- صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٣٩٠هـ.
- صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
- طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
- طبقات الحنابلة، محمد بن أبي يعلى أبو الحسين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن عبد الله بن عبد الكافي السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ.
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي.
- علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله البسام، دار العاصمة، الرياض.
- عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر النجدي، دار الحبيب، الرياض، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ.
- غوامض الأسماء المبهمة لابن بشكوال، تحقيق عز الدين علي السيد، ومحمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت.
- قصيدة عنوان الحكم، أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات، حلب، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، القاهرة، وبيروت.
- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.
- مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.
- مسند الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.
- مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- مشاهير علماء نجد، عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة.
- من أعلام المجددين، د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة